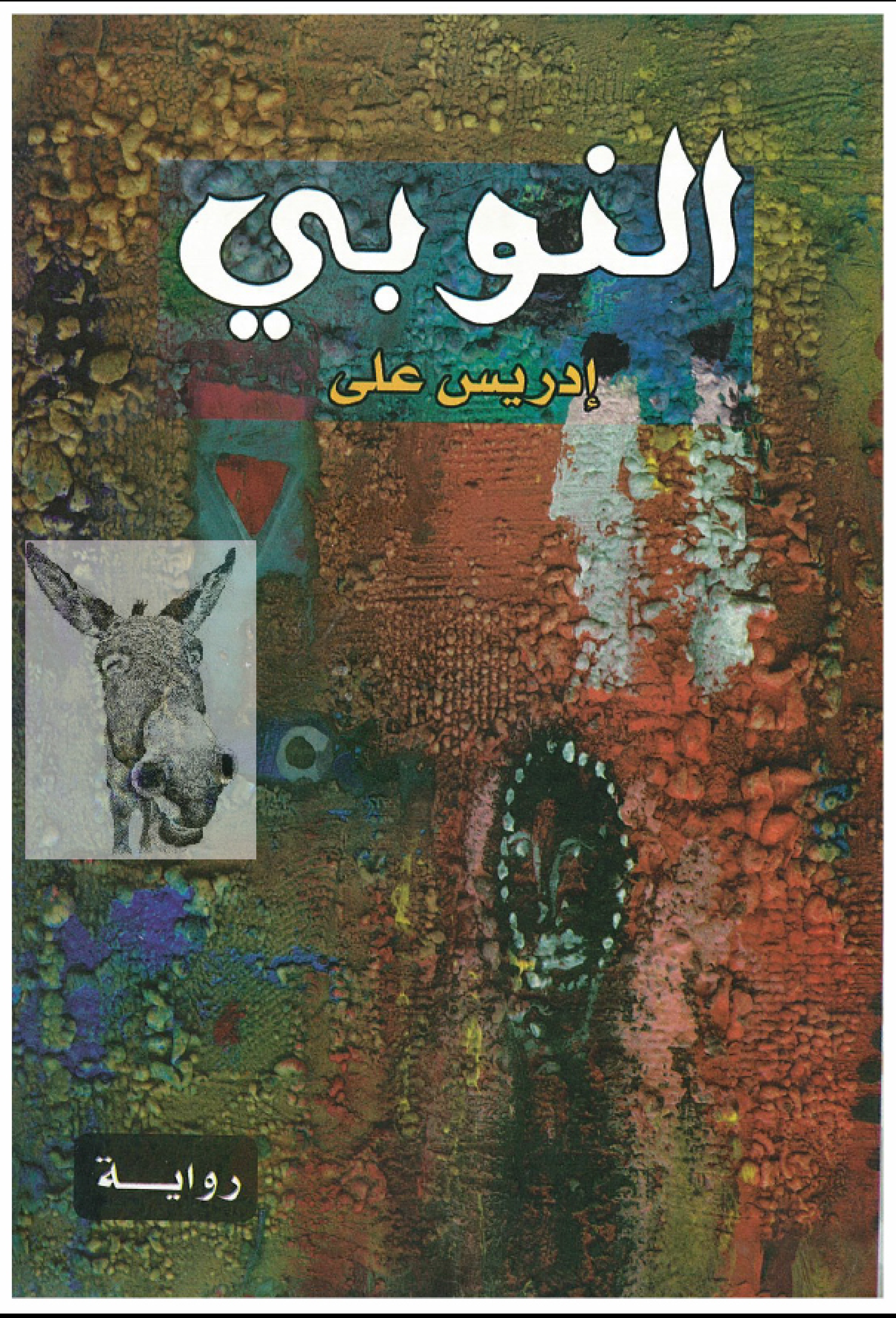

النوبي
إدريس على
رواية

النوبـــــــي

رواية النوبي

الناشر: الشركة العالمية للطباعة والنشر

المدير العام: الشيخ عووضه

تأليف: إدريس علي

تصميم الغلاف: حسان علي أحمد

إعداد الكومبيوتر: عادل عبد العزيز

رقم الإيداع: ١٥٥٦/ ٢٠٠٨

سنة الطبع: ٢٠٠٨ (الطبعة الأولى)

العنوان: ٢٤ ش الصفا والمروة – النزهة الجديدة

إدارة المبيعات: ٠١٠١٢١٩٣٩٤ – ٠١٠٣٦٥٤٣٢٦

تليفاكس: ٦٩٨٩٥١٨

البريد الإلكتروني: **Email: elshekh46@yahoo.com**

*

النوبي

إدريس علي

الشركة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع

هذه الرواية ترجمت إلى اللغتين ؛
الفرنسية والإسبانية عام ٢٠٠٧.

إهداء

إلى حبيباتي وكل حياتي

أماني

وعبير

- ١ -

رغم دعوات جدي وأحجبته .. ارتفع البناء وصار سدًا. وعنـدما أزور القرية، أضحك عليه حتى يطمئن ويرتاح نفسيًا: تصور يا جـدي مع وجود مئات العمال والأوناش والخبراء الـروس؛ فـإن المشـروع يتعثر؛ كلما وضـعوا حجـرًا .. تجرفـه الميـاه، والتربـة تغـوص بالأساسات، لقد استجاب الله لدعواتك.. بالمناسبة.. لماذا لا تدعوه لكي ينزل علينا المن والسلوى. الآن افتضح أمري ودنت النهاية وسـيباغت بيوم الرحيل. يضربني على مؤخرتي بعصاه: أكنت تضحك علـيّ يـا عكروت ؟.

جدي رجل طيب مسالم، لا يضمر شرًا لأحـد ولكنـه درويـش وكان يعتقد بأن الأحجبة التي يصنعها ويطالبني في كل زيارة بوضعها في موقع السد.. ستعوق عملية البناء.. فكنت ألقيها في النيل وأتخلـص منها. وكل مشكلته ذلك التصور القاصر بأن «كِشّي»*، هي أجمل بلاد

* كِيشّي: اسم قرية نوبية.

النوبة والدنيا كلها، أحدثه عن أسوان.. عاصمتنا الحضارية، عن القطارات والكهرباء، مياه الصنابير النقية وعن قسم الأسنان بالمستشفى الأميري. فهو يعاني من تسوس الأسنان وكان يبكي من شدة الألم وأحدثه أيضًا عن خبز الأفران الأبيض وعن سهولة الحياة ووفرة الأطعمة؛ المدمس والطعمية السخنة والفواكه «المرطرطة» في الأسواق.. فيرد بجملة واحدة مقنعة: «طيب والقروش وين؟».. نعم يا جدي، معك حق، فالعين بصيرة واليد قصيرة. لكننا نحن – أبناء الجيل الجديد- كنا منبهرين بفكرة الانتقال، لقد زهدنا النوبة بجبالها وفقرها وكآبتها.. فما إن نعبر الشلال في اتجاه الجنوب حتى نكتشف البون الشاسع بين المدينة والقرون الوسطى؛ ظلام ووحوش وعقارب وجوع ومرض وخرافات؛ فالذي يمرض.. يهلك، لا طبيب مقيم ولا مستشفيات متنقلة ولا معونات إغاثة ولا مسئول واحد يمر، والحسنة الوحيدة أنهم مدوا خطوط التلغراف ومدرسة ابتدائية في كل قرية. كانت الحياة صعبة ومستحيلة، فإذا أتيح لنا الآن الانتقال لواقع أفضل.. لماذا نرفض؟ حفاظًا على ماذا ؟. كان حماسنا شديدًا، نحن طلبة المدارس والمتوسطة، ولهذا عندما أعلنوا فتح باب التطوع في منظمة الشباب اندفعنا نسجل أسماءنا.. كان هذا قبل عملية التهجير بشهور قليلة، انتظمنا في طلائع النصر، وتلقينا جرعة مكثفة من المحاضرات عن الوطن والوطنية والمشاريع القومية الكبرى وعرفنا مهمتنا القادمة؛ مساعدة أهلنا لتقبل الواقع الجديد، وترسيخ المفاهيم الثورية في أذهانهم. وفي الواقع.. كنت من أبرز المتطوعين وعيًا وحماسًا. وفي

يوم التخرج، حصلت على درع الدورة بسبب إجابتي النموذجية على سؤال غامض طرحه أمين الشاب:

- من أنتم ؟

تأرجحت الإجابات بين السطحية والبلاهة وعدم الفهم والمباشرة، ونشط عقلي بسرعة غريبة، استوعبت مغزى السؤال جيدًا، وقلت بثقة وتمكن:

- نحن يا افندم، منبعنا النوبة ومصبنا مصر، وفي المساحة بين المنبع والمصب؛ علاقات، حسن جوار، مصاهرات، قرابات وليس هناك ما نتنازع عليه، فكلنا نشرب من ماء النيل، الغني منا والفقير.

ثم تملكني شيطان العبث فأضفت لتلطيف الجو ولأسبغ عليه مسحة مرح:

- في الواقع يا افندم مصر والنوبة «هته واحد».

ضحكت القاعة كلها حتى أمين الشاب، فالجملة الأخيرة كانت بالضرورة تستدعي نكتة قديمة أيام الاستفتاء على استقلال السودان، فقد تحمس أحد السودانيين للوحدة وقاد مظاهرة في القاهرة فحملوه وأخذ يهتف: «مصر والسودان هته واحد» ولمّا انزلوه واكتشف أن أحد المتظاهرين نشله، أخذ يصرخ: «مصر والسودان ستين هته».

فقال أمين الشاب معلقًا:

- ظريف والله.. لكننا لن ننشلكم.

- كنت أمزح يا افندم.

- جميل .. جميل جدًا. ما اسمك يا فتى.

سبقني زملائي ورددوا بصوت واحد:

- إبليس .. إبليس يا افندم.

- اسمك إبليس. لا بأس.

(أمي سامحها الله صادرت اسمي الحقيقي حين فشلت في ترويضي).

- إنهم يغارون مني.

لاعليك .. وهل تقرأ ؟

- عندما أكون في أسوان؛ أفطر بالصحف وأتغذى بالقصص وأتعشى بصوت المذياع، وكل هذه الأشياء ليست متوفرة في قريتي.

- هل تسمع خطب الرئيس ؟

- وأحفظ بعضها.

- وفي أي مدرسة يا ترى ؟

- الصنايع.

- وما مشاريعك المستقبلية.

- أريد الإمساك بالنجوم والتربع فوق سطح القمر.

- حسنًا .. كن من الأوائل وأعدك بهندسة القاهرة على حساب الدولة.

- أهذا وعد يا سيدي ؟

- اعتبره قرارًا.

ثم صحبني للمحافظ وقدمني إليه، فكر مني بمكافأة خاصة ومنحة شهرية طوال فترة الدراسة، وأصبح المستقبل أمامي مفتوحًا. الآن

صرت من رجال الحكومة، ومسئولاً عن توعية أهلي. وجاء الاختبار الحقيقي والعملي يوم وصول أهل «دابود» أول قرية نوبية سيتم تهجيرها للموطن الجديد. كان المطلوب منا تهدئة النفوس وترغيب النوبيين في المكان الجديد، وفروا لنا كافة الإمكانات من حلوى ومرطبات وأعلام وسيارة بمكبر صوت وانتقلت مع زملائي للقرية الجديدة وكانت المهمة عسيرة .. عسيرة.

- ٢ -

الإذاعة الداخلية تبث «يا جمال يا حبيب الملايين» ونحن قمنا برشق أعلام الوطن في الأماكن البارزة وصور الرئيس على أبواب البيوت وأعمدة الإنارة وواجهات المباني الرسمية وكانت الحكومة كلها حاضرة ؛ المحافظ والوزير والقيادات السياسية، صخب إعلامي هائل. ونحن وقفنا في صفين عند مدخل القرية واستقبلنا الوافدين بنشيد بلادي.. بلادي. كان قومي يهبطون من الحافلات في تثاقل وضيق وحزن، شبه حفاة، مرضى، متعبين ويتهامسون بالسباب بين بعضهم البعض.. سباب ثقيل موجه للحكومة. بينما نحن نحاول امتصاصهم بالحلوى والمرطبات ونعاونهم على حمل الأمتعة ونرشدهم إلى البيوت وأماكن الخدمات.

لا أخفي عليكم، كل المحاضرات وما قيل عن القرى الجديدة.. انهارت أمام جهامة الواقع.. فالبيوت ليست كبيوتنا، هنا تبدو كئيبة منفرة و«تسد النفس». ومواسير المياه لم تمتد بعد أو حتى الإنارة. حنفية عمومية وحيدة والإنارة مقتصرة على الميدان الرئيسي. ولا

أدري لماذا ذكرتني القرية بمعسكر تجنيد «منقباد». ومع ذلك، قمت بدوري تمامًا كما رسمه لي أمين الشباب. بينما أرنو للقاهرة حيث كلية الهندسة والمجتمع الأرقى، قال لي أحد الجنوبيين مرة: لكي تعيش في الشمال سيدًا كن سيذا. أما إذا سقطت في القاع، في جحيم الوظائف الدنيا، سوف تعاني كل أنواع العسف وتسحق حتى النخاع.

لكن مهمتي كانت تتعقد، فالقوم يدخلون البيوت ويخرجون بسرعة ويقفون أمام الأبواب في حيرة وتعاسة، وبعضهم كان يبكي، وتفكه أحد المسنين محتجًا:

- لقد نشلونا.

ولابد أنني ضحكت رغم مأساوية الموقف.. فسبني وسب أهلي. ولكنهم جميعًا دون استثناء لم يكن بوسعهم إبداء أقل مظاهر الاحتجاج.. كانت الكلمة في أبسط صورها تؤدي للهلاك وكلما سألهم الوزير عن الأحوال كانوا يرددون: «الحمد لله مبسوطين وربنا يخلي جمال» وكان بعضهم حين يمر بهم المحافظ.. يغنون:

«جمال يا عبد الناصر. إيوه»

«عبد الحكيم يا عامر.. إيوه»

«يا حبايب النوبة..»

ووسط هذه الاحتفالية الرسمية المفتعلة، وقع حادث عابر كشف عن حقيقة الحال، حادث أفزع الوزير والمحافظ والعمدة وأهل القرية نفسها والذين تصوروا أنهم سيتعرضون للعقاب الجماعي. لقد اختفى أحد المسنين من أبناء القرية رغم وجود أمتعته مع القادمين، وتعرض

العمدة للوم عنيف وتهديد بالإقصاء وربما الحبس إن لــم يظهــر هــذا الرجل. فأين يكون؟ هل سقط من الباخرة في النيل ؟ هل تاه في مرسى الشلال ؟ هل اختفى هنا عن عمد لإزعاج المسئولين ؟ أم هو إضــراب عن استلام البيت الجديد ؟ أسئلة محيرة فشل العمدة في الإجابة عنهــا. وقمنا بدورنا بسؤال كل أهل القرية فردًا فردًا.. فنفوا جميعًا أن يكــون الشيخ «فضل الله» قد ركب معهم. ومع ذلك قامت داورية للبحث عنــه في أسوان والشلال والباخرة نفسها دون جدوى، بل إن فرقــة هجانــة قامت بتمشيط القرية المهجورة بيتًا بيتًا. وجبلاً.. جبلاً لكنها فشلت فــي الوصول إلى مكمنه وزعمت الشائعات هروبه للجبل وانضمامه لقوافل البشارية وأنه هج إلى السودان وانضم إلى أبناء عمومتــه فــي حلفــا مستجيرًا بهم ولمّا وجد نفسه معهم في «خشم القريــة» فــي أقصــى الجنوب وهي منطقة أسوأ من كوم أمبو أحس بالتعاسة والغضب ممــا يجري في مصر والسودان.. فعاد نادمًا وسلم نفســه للســلطات التــي حبسته واعتبرته خائنًا ولم تكن واحدة من هذه الشــائعات صــحيحة.. والحقيقة البسيطة أنه أزعج الحكومة فعلاً وأربكها كأول نــوبي يعلــن العصيان في التاريخ الحديث.. فأين هو ؟.

-٣-

اجتمع بنا أمين الشاب وكان عصبيًا متوترًا كمعظم المسئولين في هذه الأيام الحرجة الحساسة وأنبأنا بالقرار السيادي الجديد: التوعية في المنبع. فلا فائدة من وجودنا هنا لتوزيع الحلوى والمرطبات. فتم دفعنا إلى قرانا للتعاون مع العُمد بشكل تلقائي وطبيعي دون أن يشعروا بأننا مكلفون. وكنت الوحيد من قريتي. أبرقت لجدي وركبنا الباخرة من الشلال؛ خلفنا السد الذي أزعج جدي والمسنين وأمامنا النوبة التي زهدناها. وفكرت في وسيلة أتعامل بها مع جدي الذي يصعب اقتلاعه، فهو كالوتد المغروس في التربة العميقة. يا إلهي.. كيف سألين رأسه ؟ وإذا فشلت. هل أفقد مستقبلي ؟ أسئلة كثيرة كانت تزحم رأسي والباخرة تأخذ طريقها في اتجاه الجنوب.

- ٤ -

الباخرة تنحرف في اتجاه «دابود» القرية التي تم تهجيرها رغم استبعادها من الخريطة الملاحية -وبحكم العادة- أطلقت عدة صفارات لقرية كانت ولم تعد. صاح شاب في وجه القرية متنهدًا:

- سلام عليك يا دابود..

- في ذمة التاريخ يا حلوة..

هاجت الكلاب، نبحت بعصبية، احتلت الشاطئ وقد شمت رائحة البشر وطعامهم. الدور ساكنة، أبواب البيوت بين مفتوح وموارب ومنزوع. وكأن قومًا كانوا هنا وفروا على عجل خوفًا من خطر داهم، وكأن القرية تعرضت لطاعون أهلك سكانها. خيل إلى رجل يتوارى خلف الصخور. سألت رفاقي فهزوا رؤوسهم نفيًا. ربما تخيلت فعلاً.. أنه السراب؛ فمن ذا الذي يغامر بحياته وسط هذه الكلاب التي تلتهم بعضها! لن تمر شهور أو سنوات حتى تزحف مياه السد وتبتلع كل هذه الأماكن في جوفها. وبعد مئات السنين ستأتي بواخر الأبحاث وتنقب في الأعماق لاستخراج الجماجم والأواني الفخارية ثم يقولون:

هنا كانت حضارة ابتلعتها هزة أرضية أو طوفان نوح. سلام عليك يـــا «دابود». بعد الخزان الأول بنى جدي بيتنا الجديد فوق أعلى قمة جبل «العلياب» زاعمًا أن النهر لن يلحق بنا حتى لو بنوا ألف خـــزان. يـــا لجدي المسكين.. فماذا سيقول الآن ؟ وبأي لغة سأوعيه وأحدثـــه عـــن الوطن والمشاريع القومية. يقولون في أمثال الشمال إن الماء لا تطلـــع العالي .. فيالأمثالهم الساذجة. أهذا ممكن! النهر الذي عشقناه وقدســـناه وعاملناه برفق هو ذاته سيغدر بنا. نعم اتق شر من أحسنت إليه. ليتنـــا لوثناه واحتقرناه، وصاح شاب مشيرًا لحيث توهمت من قبل:

- ودين النبي هناك خيال إنسان يتحرك.. يبين ويختفي.
- تتخيل مثل صاحبنا.
- أوهام.. والله أوهام
- يا جماعة ركزوا جيدًا.. انظروا هناك.
- بالتأكيد هو الشيخ «فضل الله».
- وربما لص جاء يفتش عن شيء.
- إنهم ينزعون الأبواب ويبيعونها في أسوان.

زعق شاب متوتر موجهًا صوته إلى كابينة القيادة :

- يا ريس.. بالله عليك لا توجع قلوبنا يقطع دابود وأهله والشيخ «فضل الله».

على بعد خطوات رأيت رجلاً غريبًا غامضًا يتنصـــت لحوارنـــا راصدًا القرية بنظارته المكبرة. ليس من سكان المنطقة. هـــذا واضـــح من ملابسه الإفرنجية وسمرته الإفريقية. رأيته هناك أيضًا في لحظـــة

استقبال المهجرين وكان محاطًا برعايــة رمســية فائقــة ومرافقــاً للمحافظ..

- من هذا يا جماعة ؟
- وما لنا به !
- يبدو غريبًا.
- مجرد سائح.
- وهل بين السياح سود ؟
- وكأنك لم تشاهد زنجيًا أمريكيًا.
- لست مطمئنًا إليه..
- لا تشغل بالك..

رغمًا عني، احتل الرجل حيزًا من تفكيري، راقبته وهو يصور، يتودد، يتحاور، وهو يرصد الأشياء بنظارته، وهو يتحدث بلغة عربيــة سليمة، وكأنني أود إمساكه بشيء ما. ربما لأننــي فــي محاضــرات التوعية سمعت عن الجواسيس والعملاء وخلال الساعات التالية أحدث هذا الغريب في داخلي تصدعات وشروخًا وكاد يقتلعني من جــذوري ويجردني من ملابسي ويتركني عاريًا أمام التاريخ. حتى تمنيت قتله.

-٥-

حين استدارت الباخرة لمواصلة رحلتها، قفز أحد الكلاب في النهر، سبح محاولاً اللحاق بنا، تجمعنا عند المؤخرة، نشجعه، نصفق له، نناديه، سبح بقوة وإصرار، دوامات الرفاص تعوقه، تعب، حاول الرجوع، فشل، خارت قواه، غطس ثم طفا، غطس تاركًا مكانه دوائر ماء. غرق. جاء ينشد الألفة والأمان فراح طعامًا للتماسيح. تذكرت كلبي. أحسست بدوار، باختناق، بكيت. جذبوني بعيدًا، سقوني ماءً. أحاطوني مهدئين. تصوروا بكائي على مصير الشيخ «فضل الله» فقال أحدهم محتجًا:

- تجلد يا زول .. نحن هنا أو هناك في وطننا؛ وهذا العجوز الأحمق سيهلك .. هذا جنون .. منتهى الجنون. رغم احتلال الشيخ مساحة هائلة من تفكيري خوفًا من أن يقلده جدي؛ إلاّ أن مصير الكلب كان ضاغطًا على وجداني، أشرت لهم إلى حيث غرق ..

- مجرد كلب.

- أول مرة نشاهد من يبكي كلبًا.

- عجائب يا زمن .. لم يبق سوى الكلاب لنبكي عليها.

- يا جدع .. كن رجلاً.

- كيف اختاروك في «الطليعة» .. يا «طري».

- ومنحوك درعًا ؟

مرتعشاً كنت، أنتفض، كلبي تذكرته، كان جروًا، ربيته، أطعمته قوتي، دربته، كبر على يدي، صار ذكيًا، يشم رائحتي على بعد ساحق، يأتي للمرسى وينتظرني، يبكي حين أسافر، يتقافز ويرقص عند عودتي، يحرسني ليلاً، يلازمني نهارًا، يتصدى بشراسة لمن يتعارك معي، عض جدي حين ضربني، الأولاد يهابونني بسببه، صرنا معًا كيانًا واحدًا مثل الأعرابي وجمله. فهل أدعه لهذا المصير المفزع ؟! سأنقذه مهما تجشمت من عناء. قال أحدهم مستهجنًا:

- تعالوا يا شباب النوبة .. شوفوا هذا الـ (فافي) الذي صار كالخواجات الذين يتعاطفون مع الحيوانات دون البشر.

- يا زول وفر دموعك .. أمامك أيام ستبكي فيها حتى يجف منك الدمع.

وقال شاب بحماس:

- هيا شباب النيل .. دعونا من الأحزان.

- وماذا نفعل ؟

- دقوا الكف.

- سنقيم عُرسًا.

- نغني.

- هيا بنا نرقص.

- نعم .. أراجيد* .. أراجيد .. أراجيد.

بغتة، بلا سبب منطقي ولا إعداد سابق، تحول سطح الباخرة لساحة عُرس، كتلك التي تقام في قرانا، تصفيق قوي .. إيقاعات منضبطة بالأقدام:

«هيلى .. هيلى .. هلا

هالا .. هالاً .. حلاوة يا .. أيوه حلواني

حلاوة يا شربات

حلاوة يا شربات».

استعار شاب شال النوبية الوحيدة معنا ورقص كأجمل النساء. البحارة تحمسوا فأتوا لنا بدف وطنبور، تدفق الدم حارًا في العروق وارتفعت الأصوات قوية هادرة تغني للسمراء الجالسة عند الشاطئ تنتظر حبيبها المهاجر: أسمر اللون يا أسمر اللون.

وجاءت سائحة إنجليزية تركض ووقفت تصفق وتهتف:

- بيوتفل .. بيوتفل .. أي لايك.

كانت تهتز بفستانها القصير وصدرها المكشوف وجسدها الناصع البياض فبدت كالبدر وسط ظلام دامس، ارتفع حماسها لدرجة الهوس فجذبت النوبية الجالسة في حياء وانغلاق ودخلت بها الساحة عنوة:

- كمون .. كمون.

---

* الأراجيد: رقصة نوبية شعبية جماعية.

واكتمل الفرح بامرأتين من لحم ودم. فتحمس باقي الشباب؛ من كان متحفظًا .. خرج عن جموده. من كان حزينًا .. فرح. من كان يفكر في المصير المقبل .. نسى. ونسيت الشيخ «فضل الله» وكلبي فقمت منشدًا:

«عاشق الحبيب صلي عليه

صلي صلاتك يا محمد».

رقصت كما لو أرقص من قبل. الباخرة كلها ترقص .. تتمايل، حالة من حالات السمو الإنساني النبيل .. اندمج الجميع في رقصة «الأراجيد»؛ «الكنوز» «الفادچا»، «المحس»، «السكوت» «الدناقلة» وحتى السودانيون الذين من أصول عربية، حتى إخوتنا عرب «العُليقات»، حتى عمال الباخرة من أهل الصعيد والأجانب من ركاب الدرجة السياحية وربما الأسماك والتماسيح. وجاء «الغريب»، وقف فرحًا، منتشيًا زاد حماسه فعلق الكاميرا ونزل وسطنا. كان بارعًا، متمكنًا، تفوق علينا فأفسحنا له الدائرة فغنى بلغة ليست مثل لغاتنا وإنما شبيهة بها. واحد من زملائي في «منظمة الشباب» تذكر دوره السياسي فأنشد:

«هلا لون يا لون

لونه يا لون لونه

جمال يا عبد الناصر

إيوه

عبد الحكيم يا عامر

إيوه

يا حبايب النوبة».

وما حيرني في هذا العُرس التلقائي الجميل سوى أمر هذه البنت النوبية، كانت معنا من البداية، منزوية خجلة في ركنها الحصين ولم تلفت أنظارنا، مثل أي شيء نملكه ولا ندرك قيمته. مجرد بنت مثل كل البنات، نعاملهن بحذر ويتعاملن معنا من خلف جدار، والآن حين رقصت في هذا التوقيت وفي هذا المكان تبدو كأجمل الجميلات. وأجمل من الخواجاية ومن بنات مصر، مئات القرون مرت ونحن هنا في هذه البقعة من العالم. نلعنها ونضيق بها والآن حين بدأنا نفتقدها .. نشعر بقيمتها وجمالها. «أراجيد» المزيد من الأراجيد، وحين وصلت الرقصة لذروتها، تحمس القبطان وسرت إليه العدوى فأطلق صفارات الباخرة على أنغامها:

«توت .. توت

يا نوبة

توت .. توت

يا حبيبة

توت .. توت

بالسلامة

توت .. توت

الوداع .. الوداع .. الوداع».

- ٦ -

حين دنت الباخرة من مدخل القرية التالية، توقفنا حتى لا يظـن أهلها بنا الظنون. فليس هذا موسم الغناء والرقص، بل موسـم الحـزن والرحيل.

جلست أستريح مسائلاً نفسي: ما معنى هذا ؟ ومن يكـون هـذا الغريب الذي شاركنا عُرسنا المجنون، وتفوق علينا ؟ عدت لأحزانـي. كلبي المسكين والشيخ «فضل الله» المتمرد يبـين كالخيـال العمـلاق محتضناً القرى ومتهمًا إيانا بالسلبية والخضوع، كنت أراه مرتسمًا فـي كل الوجوه والصخور والمعابد والنخيل، أنظر إلى النيل فأراه تمساحًا، اختلس النظر للبنت .. فأراه، أغمض عينّي فأجـده داخلـي. أهـرش فأحس به في جلدي. لا يبكـي أو ينـوح إنمـا – للغرابـة– يـرقص الأراجيد.

المهمة فعلاً عسيرة، فلابد أن أخباره تواترت للقـرى والنجـوع. عليك اللعنة يا شيخ «فضل الله» .. تكاد تفسد مهمتـي، فمـن السـهل إقناع البنات والنساء والشبان .. لكن ماذا نقـول للمسـنين ؟ وكيـف

أضحك على جدي وأصور له البلاد الجديدة بالجنة الموعودة ؟ يكفي علمه ببعد النهر عن البيوت مع أننا كائنات نيلية. دائمًا نسبح؛ حين نغضب أو نفرح، نطفئ ثورتنا بالماء، دائمًا في الماء من الشروق للمغيب، لو قلت لجدي صراحة عن الأحوال هناك، لن ترغمه قوة على الرحيل حتى كتيبة من الهجانة، فجدي والنهر كائنان متوحدان. كان خزان «أسوان» البداية وسدها النهاية؛ بناءان هائلان شيدا لضبط المياه ونشر الرخاء دون أن يخطر على بال المخططين .. أنهما سيسببان ألمًا لقوم ووجعًا لقلوب. وقد علمونا في المدارس حب الوطن والدفاع عنه والتضحية من أجله. لكن لماذا لا يضحي الوطن من أجلنا أم هو عطاء من طرف واحد ؟! وكان الذين يحاضرون في معسكر منظمة الشباب من أبناء الشمال الذين لم يخسروا شيئًا سوى بلاغة اللفظ. كلام في كلام. هؤلاء القوم يجيدون التلاعب بالألفاظ وسأنوب عنهم في الضحك على جدي وأصنع له من الفسيخ شربات و«ألبس البوصة تبقى عروسة» هكذا تعلمنا منهم؛ التلفيق. وقد منحوني درعًا من الوهم ووعدًا هلاميًا بلا سند قانوني.

حاول الشبان إقامة عُرسهم من جديد حين بعدت الباخرة عن القرية لكنهم صمتوا. وكأن الذين غنوا ورقصوا من قبل .. قبيل من الجن احتلت الباخرة للحظات ثم تبخرت. لا أحد يضحك أو يغني، لاذ كل واحد بهمومه مفكرًا بماكان وسيكون، كل واحد له ذكريات مع الأرض والنهر والجبل والمرح والأحلام. وكأن فرحتهم كانت مجرد حالة عارضة. غنوا بشجن، رقصوا الأراجيد بحماس .. لكنها كرقصة

فراشة حول ضوء ساخن .. انسحب ركاب الدرجة السياحية واستمر الغريب بيننا، متوددًا، متقربًا، محاورًا. وكلما رست الباخرة أمام قرية سأل عن اسمها ملتقطًا صورًا للبيوت والناس والجبال والنخيل بينما الباخرة ترسو وترحل في صمت، زمان كانوا يستقبلونها فرحين، فدائمًا تأتي بمغترب أو عريس؛ محملة بالطرود والرسائل وكانت رمزًا للخير وجمع الأحبة. الآن صارت مصدرًا للشر والاقتلاع من الجذور. فكرت .. ماذا لو وقع زلزال وسد مجرى النيل أو نبتت جزيرة طينية وأعاقت الملاحة ؟ كيف سيهجرون الناس ؟ القطارات تتوقف عند «أسوان» والمدارس العليا في أسوان والمستشفيات والإنارة والحكومة نفسها وكأننا لسنا من المواطنين .. والآن يحدثوننا عن الوطن «وكنتم فين من بدري». وحين مدوا أعمدة التلغراف. كانوا يقصدون تصدير الأوامر لنا والإحاطة بأحوالنا. أليس غريبًا أن الوسيلة الوحيدة التي تربطنا بالوطن .. هي هذه البواخر العتيقة المملوكة للسودان ؟! فهل يصدقني جدي حين أزين له هذا الوطن ؟ ونحن معزولون عنه حتى بطريق ممهد للسيارات .. فمن فعل بنا هذا ؟ ومع ذلك قررت بدء مهمتي القومية بمراقبة هذا الغريب. سأمسكه متلبسًا بالتجسس وأسلمه للسلطات وأحصل على وسام. ولكن على ماذا سيتجسس عندنا ؟ لا مصانع ولا موانئ ولا معسكرات جيش. هو جاسوس .. لكن أين الدليل ؟ لا بأس من التلفيق، سأزعم أنه كان يدس مادة في النيل لتسميم أهل الشمال. أو كان يحرض الناس على العصيان وهو المتسبب في تمرد الشيخ «فضل الله»! إنما المحير في أمره؛ لماذا كان محاطًا

برعاية رسمية ؟ حتما ليس من رجال الحكومة ولا من أبناء منطقتنا لا شمالي ولا جنوبي. أعرف الوجوه والأزياء، هو أجنبي الزي، أفريقي اللون، تابعته وفحصته ودققت في وجهه. فقط لو أعرف من يكون ؟ وماذا يبتغي عندنا ؟. هو الذي اقتحمني، تقدم نحوي بقميصه المشجر الحريري، وسرواله القصير، والسلسلة الذهبية المدلاة على صدره المفتوح. وقبعته والغليون في فمه. مد لي يده الضخمة مصافحاً ومتسائلاً:

- الأخ من «كيشِّي» ؟
- هذا اسمها القديم.
- أنت منها ؟
- ولي الشرف.
- سألت عنك فدلوني وتوسمت فيك الذكاء.
- خيرًا ؟
- خير طبعًا .. ماذا تظن ؟
- بل أظن !
- تظن ماذا ؟
- أنك شخص مريب.
- مريب ؟! هذا شيء مضحك.
- نعم .. لدينا حساسية ضد الغرباء.
- لست غريبًا.
- لا تقل أنك من النوبيين المهاجرين ؟

- لم أقل بهذا.
- ماذا إذن ؟
- سنتعارف خلال زيارتي لقريتكم.
- أهلاً وسهلاً .. وماذا تطلب عندنا ؟
- رحلة استكشافية.
- ليس لدينا معالم سياحية ولا قواعد عسكرية.
- أنت واسع الخيال.
- بل شديد الذكاء.
- هذا غرور.
- يا سيد .. ماذا تريد في قريتنا ؟
- عندكم شيء هام أسعى إليه.
- وما هو ؟
- معمِّر يعيش في قريتكم.
- ومن يكون ؟
- اسمه «كُنّود».
- كنود ؟
- كُنّود شكنده جدكاب».
- تقصد كنود «الأرمود»*.
- ربما

---

* الأرمود: الرماد المتخلف من خطب الوقود.

- هو عندنا ولكنه على حافة القبر.
- عظيم .. هذا من حسن حظي.
- وما أهميته ؟ فهذا رجل لا يحل ولا يربط، كائن حي بالصدفة، قعيد مريض، مشوش، جثة تتنفس.
- كيف أفسر لك، لا أدري، عمومًا، ستكون معي ودليلي .. وسأكافئك.
- لا نتعامل بالأجر.
- لن نختلف ..

غريب في ديار النوبة .. ماذا يروم يا تُرى ؟ يغني ويرقص معنا ومثلنا، يتحاور ويحاول الغوص في الأعماق البعيدة وجاء باحثًا عن رجل من المهمشين، بلا قبيلة ولا مال. ونسميه «أرمود» تحقيرًا لشأنه، يخشاه الكبار ويظنونه حاسدًا وساحرًا. يتجنبه الصغار وينعتونه بالغول، وعائلتي تقاطعه منذ ما قبل ولادتي لسبب مجهول لي. هاجمتني الشكوك فسألته مرتابًا:

- مستر .. من أنت ؟
- بني آدم كما ترى.
- أقصد من أين ؟
- إنجليزي الجنسية، سوداني الأصل.
- أنت سوداني.
- ومن جبال النوبة.
- جبال ماذا ؟

- النوبة.
- وأين تقع هذه الجبال ؟
- في الغرب.
- يعني داخل السودان.
- تمامًا.
- هذا غريب.
- ونوبي مثلك.
- نوبي ؟!
- ونحن الأصل وأنتم التقليد.
- أنت نوبي وأصلي ؟
- نعم .. ما وجه الغرابة ؟
- النوبيون في السودان هم «الحلفاوية» و«السكوت» و«الدناقلة».
- هؤلاء أيضًا تقليد مثلكم.
- سيدي .. هل أنت في وعيك.
- وهل تراني سكرانًا ؟
- أنتم الأصل .. كيف ؟!
- نحن نعتقد ذلك ؟
- تعتقدون ؟ وعلى أي أساس ؟
- عن يقين.

يا ربي. يعتقدون! من هم ؟ وهل توجد في السودان جبال منسوبة للنوبة غير جبالنا المعروفة ؟ الرجل بالتأكيد يمزح ويحاول التشـويش على ذاكرتي وتخريبي لغرض في نفسه .. فمنذ ركبت هذه الباخرة في رحلاتي الدراسية إلى «أسوان» عرفت من خلال ركابها كل فصـائل النوبيين؛ «الكنوز» و«الفادجا» في الشـمال و«العـرب» بينهمـا ثـم «الحلفاوية» و«الدناقلة» في السودان، بعمائمهم وجلابيـبهم البيضـاء واللغات الأربع المتقاربة. أبدًا ليس لهذا الغريـب علاقـة بهـؤلاء ولا قرأت عنهم ولا ذكرهم جدي. حتى لونه مختلف عنا فهو أقرب للسواد الزنجي منه للسمار النوبي، شعره أكرد ولكنه ليس زنجيًـا مثـل مـن رأيتهم في فيلم (طرزان). أنفه عادي. لكنـه قصـير نوعًـا. وقـوي. ومازلت حائرًا.

- تعتقدون ؟
- أنت لا تصدق.
- وهل ترقصون «الأراجيد» ؟

لنا رقصاتنا.

- وهل لديكم بيوت مثل بيوتنا.
- كل البشر يسكنون؛ قد تكون أكواخًا، عششًا، جحورًا، كهوفًـا أو بيوتًا مثل بيوتكم الجميلة .. مـاذا تظننـا .. نتعلـق بـين السـماء والأرض.
- كنت أظنكم تعيشون عراة في الغابات
- معلوماتك مشوشة يا فتى.

ولكم لغات مثلنا.

- بعدد الجبال.

- يعني أنتم غير الجنوبيين.

- يا ابني نحن أصحاب حضارة «مروى» و«نباتا» و«كوش». و«كاشتا» و«طهراقا» و«بعنخي» منا، ونحن الذين تصدينا للفراعنة والعرب والمماليك. كانوا يصلون إلى «دنقلة» ولا يتوغلون. والعرب الذين هزموا الفرس والروم .. أوقفناهم، وللتاريخ، لم يكن لقومي فضل كبير في وقف الزحف العربي .. لأن الجنود العرب لم يجدوا ما يحفزهم على مواصلة الزحف .. لا فيء ولا أسلاب ولا سبايا جميلات، لكنهم كانوا قد نجحوا في زرع قبائلهم في الشمال هذه القبائل اخذت تغير علينا بين وقت وآخر، تخرب بلادنا، وتسبي أولادنا، ليقايضوهم بالطعام تنفيذاً لاتفاقية «البقط» اللعينة المهينة. كل عام كان ينقص منا ٣٠٠ رجل فتقوقع قومي بالجبال وتحصنوا بها خوفًا من الجلاَّبة ومنكم. هكذا كافأتمونا بعد أن تركنا لكم صفحات مضيئة تتفاخرون بها وتتاجرون على حسابنا - وفي النهاية تنكرون وجودنا وتحاولون نفينا من التاريخ الذي هو تاريخنا. أنتم أبدًا لا تعانون مما نعاني، يكفي في هذا الصدد أنني تعرضت لمحاولتي اغتيال في روما وأسمرة. وفي آخر زياراتي لموطني وقعت قلاقل واشتباكات بين القبائل والحكومة ولم يكن لي يد في الموضوع، لكنهم اعتبروني محرضًا وحكموا عليّ بالإعدام. لولا زوجتي المصرية.

- زوجتك مصرية .. كيف ؟

- نعم ومن أسرة قبطية عريقة .. كانت تلميذتي في إنجلترا، المصريون يا ابني قوم متسامحون وكما حدث مع «نكروما» و«فتحية» المهم .. لم تسكت وقادت حملة دولية مكثفة لإنقاذي، اتصلت بالبابا وملكة إنجلترا والأحزاب السودانية وجميعات حقوق الإنسان ولما أخفقت لجأت للعظيم «عبد الناصر» هو رجل قوى ومحرر وله نفوذ .. تدخل بثقله فأنقذني وأنا مدين له برقبتي .. ولكنهم كانوا قد منعوني من دخول السودان ومازلت. ففصلوني عن أهلي لكني أتواصل معهم بالرسائل وحملات الإغاثة الدولية. ودائمًا التقى بـ«عبد الناصر» حين أزور القاهرة وأمتثل لنصائحه في الحفاظ على وحدة السودان .. هو رجل وحدوي ولا يناصر الشعوية وحركات الانفصال .. قد أختلف معه ولكني أحترمه جدًا وقد ساهمت في حملة إنقاذ (آثار النوبة) وتشاورنا معًا فيما يخصكم عند بدء مشروع السد. كانت هناك عدة آراء، نقلكم إلى مشروع (مديرية التحرير) أو توزيعكم على المحافظات أو كما حدث بعد بناء (خزان أسوان)، أي منحكم تعويضات وترككم تقررون مصيركم، لكننا اتفقنا على المكان الحالي .. عن كثب من الجغرافيا القديمة وبنفس التركيبة السكانية حتى يحافظ على هويتكم. بعضكم الآن يحتج على هذا النقل وتريدون التقوقع فوق الجبال .. كتلك الغلطة البشعة التي ارتكبها قومي. انفتحوا على العالم واحتكوا بالحضارة. ماذا هنا ؟ الشيخ «فضل الله هذا الأحمق ليس نموذجًا. قومي حتى الآن عراة وثنيون. أما أنتم،

فظروفكم أفضل لوجودكم عن كتب عن مصر و«عبد الناصر» هذا رجل عظيم ولا أدري لماذا تكرهونه؟!

بالتأكيد لست أصمًا والرجل يتحدث بلغة عربية مفهومة لي ولاتوجد شوشرة تعيق الالتقاط. وكنا وحدنا في مؤخرة الباخرة وكل الظروف مهيأة لحوار هادئ. ومع ذلك فشلت في استيعاب جملة واحدة سليمة ومتماسكة .. فإما أنني أمام مخبول أو ينقصني الذكاء وضحل المعرفة فالقرآن الذي نتلوه لم يذكر لنا عن قوم هذا الرجل وملوكهم «طهراقا» و«بعنخي» و«كاتشا». مع أنه ذكر «ذو القرنين» و«أبرهة» و«يأجوج» و«مأجوج» و«نوح» و«فرعون» و«آل موسى» و«قابيل» و«هابيل» .. وكتب التاريخ التي درسناها تجاهلتهم. فهل هو تاريخ مزيف أم أنني أمام محتال ؟

ومع ذلك، مازالت هناك بقية من حوار تعيد ترتيب المسائل. سألته متحديًا:

- سيدي .. لدي بعض الإيضاحات ؟
- إني أسمعك.
- عفوًا .. ما اسمك ؟
- كتبه «تيما كوداي».
- كتبه ؟!
- ألا يعجبك ؟
- هذا ليس اسمًا نوبيًا.
- وما الأسماء النوبية ؟

- كلها معروفة.

- مثل.

- اسأل ركاب الباخرة.

- وأنت ما اسمك ؟

وكأنني توقعت سؤالاً كهذا وسط حوار عبثي، يديره غريب، التقي به مصادفة، في توقيت فاصل من رحلتنا البشرية، وكمن يلقي بقصيدة شعر، حفظها عن ظهر قلب، رددها مرات، في مناسبات مختلفة، وكما لقنني جدي، منذ طفولتي، قلت بثقة واقتدار: اسمي «عبد الله»، «علي»، «محمد»، «حسن»، «أحمد»، «عواض»، «موسى». اسمًا وراء اسم، حتى نهاية الشجرة المباركة؛ «عون الله»، «شرف الدين»، «تود»*.

- ألا تتوغل ؟

- إلى أين ؟

- لأبعد .. لأعمق.

- هذه شجرة عائلتنا كما علمني جدي.

- وهذه ليست بأسماء نوبية يا شاطرة.

يا ربي. إخسف بهذا الرجل الأرض والذي لا يعجبه أسماء أمة المسلمين .. أمة محمد. يا ربي .. افعل شيئًا في هذه اللحظة الحاسمة. الهول. الهول «وهذه ليست بأسماء نوبية يا شاطر»، قالها ببساطة،

---

* تود: ابن.

بهدوء مستفز وهو يحشو غليونه وينفث الدخان في وجهي. وكان يبتسم. بدا منتصرًا، مزهوًا، بعد أن هدم قناعاتي وزلزل الأرض من تحتي، فأحسست كأنني معلق في الفراغ. بعثرني. ورغم الطقس الشتائي المعتدل، شعرت بسخونة وطنين ودوي هائل ورغبة وحشية في الصراخ والشجار تمنيت و ملكت قوة تساعدني على إلقاء خصمي في النيل. خيل إليّ أن سحابة سوداء قادمة من الجنوب البعيد قد أطبقت على «نوبتنا» فتشوهت الملامح والمعالم والآثار والنيل والبلطي والتماسيح. هي القيامة. فلا أبي هو ابي ولا امي «آشة همّد»* وبعد كل هذه السنوات من الزهو والثبات صرت مجرد حفيد سبية كان يتسرى بها عربي. ملعون أبوك يا حقير. أو واحد من الكُشاف الأتراك او مملوكي هارب. هذا سخف وتخاريف رجل ممرور متحامل. نحن النوبيين رغم أنفك لا زلنا نرقص «الأراجيد» ونملك النيل والمعابد وأنتم تعيشون عراة فوق الجبال.

انتابني دوار وإحساس لم يكن واضحًا في البداية، ثم بالتدريج تبينته حين تمالكت وخرجت من الصدمة. وحددته .. إنه الهلع، هلع مدمر وفظيع. تساءلت فزعًا:

- ماذا قلت يا أنت !
- أرد عليك.
- أعده على مسامعي لو سمحت.

---

* آشة همّد: عائشة محمد.

- لقد سمعتني جيدًا.

- ولكنك تشكك في الثوابت.

- ثوابت ؟

- ما تورثناه.

- أكاذيب لحساب الآخر.

- من الآخر ؟

- عرب وأتراك ومماليك.

- قلت أكاذيب ؟

- وتشويهات متعمدة.

- أجدي كذاب ؟

- جدك ببغاء.

- كيف.

- أتعرف من هو الأمير «نجم الدين» الذي اوقفتم عنده سلالتكم؟

- هو جدنا.

- إنه أحد أمراء قبيلة «ربيعة» العربية.

- أليس من أشراف القوم ؟

- بلى.

- ماذا إذن ؟

- لا اختلاف في هذا. لكن أين جذوركم الفرعونية والنوبية ؟

أين «رمسيس» و«نفرتاري» و«طهراقا» و«كاتشا»؟ قـل لـي.. أين؟ أنتم هنا تتفاخرون ببنى «الكنز» وهم هناك «مچراب» و«مُرداب» وكُشاف». لقد اختزلتم التاريخ في العرب والأتراك والمماليك وتجاهلتم من سبقوهم.

- لا أدري .. جدي سيفيك.

- عدنا لجدك.

- هو شيخ عرب ورجل عظيم.

- بل أكذوبة.

- من فضلك.

- أقصد لن يضيف جديدًا.

- ماذا تريد ؟ .. أفصح !

- دعنا من كل هذا الهراء، فليس هناك شيء موثق. إنس كل ما قلته لك وعش على قناعاتك السابقة وأهنأ بها .. فليس ثمة كعكة نتعارك عليها، جبال في جبال وسخام في سخام، هو تايخ ناقص، مشوه، مسكوت عنه.

- وما التاريخ الحقيقي في نظرك ؟

- أبسط قول أننا وأنتم من أصل واحد رغم غروركم. فنحن على الأقل أخوالكم لأن بناتنا السبايا هن جداتكم وقد قمن بدور كبير وجليل

في تنويب أولادهن وأزواجهن والمحافظة على تراث النوبة ولغتهــا .. فلهن الفضل في بقاء سلالتنا بشكل الحالي.

تنبهت والباخرة ترسو أمام قرية «جرف حسين» ومعبدها الشهير بالبر الغربي أو «تنجار»* وفي البر الشرقي أو «مالتي»**، «كيشــي» قريتنا والأمور مازالت ساخنة ومائعة والمعركة مازالت ..

كان واضحًا مدى إعجابه بالمعبد. نعم .... عشرات الأدلــة فــي صالحي وهذه المعابد المتناثرة على ضفتي النيل .. أهمها. فهي تؤكــد أصالتي ونوبيتي. قلت للغريب بزهو مبالغ .. لأغيظه:

- هذا بناه أجدادي.
- أجدادك !
- أتشك في هذا ؟
- طبعًا.
- لا تقل أجدادك.
- لا تقولني يا فتى.
- من إذن ؟ العفاريت أم قوم هبطوا من السماء ؟
- كل معابد النوبة الســفلى بناهــا الفراعنــة وأشــهرها معابــد «رمسيس» في «أبي سمبل».
- الفراعنة ؟!

---

* تنجار: غرب.

** مالتي: شرق.

– نعم .. لأن السيد «عون الله» ابن الأمير «شرف الدين» لم يكن بناءً. ولا آثار له عندكم ولو وجد وسيلة لهدم هذه المعابد لهدمها لأنها في عقيدته من الأصنام فحضارة العرب شعر وقرآن ولغة.

– كأنك تجردني من ملابسي.

– حتى لا تتدثر بملابس غيرك.

الباخرة تستدير في طريقها إلى قريتنا، تشق النهر في سهولة وانسياب. ونهر الشتاء دافئ شفاف وآمن. لا طمي تغوص فيه الأقدام حتى الابتلاع ولا فيضانات عالية تكتسح وتدمر. حتى التماسيح تنسحب للمستنقعات الجنوبية والخيران. كنا ونحن صغار نعشق نهر الشتاء للسباحة واللهو دون مخاطر. بينما الكبار يحبون نهر الصيف للزراعة وصيد الأسماك ويبتهلون إلى الله حتى يغفو مهندس الري الذي يشرف على عيون (خزان أسوان) لكي يتمكنوا من الحصاد. فقومي كانوا يزرعون ولا يحصدون إلا نادرًا حين يقومون في الشمال بتخزين مياه الفيضان فيرتد إلينا ويداهم ذراعاتنا على غير توقع. أما جدي تمساح الجنوب والسباح الشهير وصائد التماسيح؛ فالنهر مأواه صيفًا وشتاء، لا يخرج منه إلاّ في أوقات الصلاة والطعام والمهام العاجلة. كان يحب النهر بعد الله. وأحيانًا ينساه وينشغل بالنهر. ولو رأى طفلاً يلوثه بالتبول .. طارده وكواه في شيئه. فالنيل عند الشماليين مجرد حاجة. منفعة. أما عندنا .. فهو نعمة وقيمة. نيل جدي هو نيلنا، وهبة الله لنا من دون العالمين، ليس له علاقة بالفراعنة والعرب والمماليك والأتراك وقوم «كتبة تيما كوادي» هو نيل النوبيين

دون منازع مثلما «كيشيِّ» هي قريتي و«آشة همّد» أمـــي. ثوابـــت لا تقبل المساومة والشك والجدل..

- هذا نيلنا.

قلتها له واثقًا حين رأيته يتابع باهتمام أسرابًا من سمك (البلطـــي) فرد باستخفاف:

- نيلكم ؟

- بلا جدال.

- وما الدليل ؟

- يقبع عندنا في أمـــان منـــذ آلاف الســـنين .. لا هجرنـــا ولا هجرناه.

- ألم تقرأ الجغرافيا يا شاطر.

- وما تقول ؟

- النيل ينبع من الجنوب وله روافد متعددة ثم يصب في الشمال، وخلال رحلته الطويلة يمر ببلاد كثيرة بينها بلادكم .. وأنـــتم مجـــرد مجرى .. طريق .. فهو ليس نيلكم ولا نيلنا. إنمـــا نيـــل كـــل الـــبلاد الواقعة في طريقه. على المشاع. فكيف يكون نيلكم ؟! فلا انتم المنبـــع ولا المصب. هه .. قل لي .. كيف ؟!

يا ربي. «وبعدين معاه ابن الـــــ ... دا ؟». يكيـــدني ويغيظنـــي ويكاد يفرسني. فلماذ اختارني من دون كل هؤلاء الركاب ؟!

والباخرة تدنو من قريتنا، لمحت عن بعد رءوس ثـــلاث نخـــلات تبرز من مدخل خور «العلياب». هي كل ما تبقى من مذبحة (خـــزان

أسوان). مئات مثلها غرقت وكانت تطـرح أجـود أنـواع «التمـر»؛ «الجاو» و«السكود» و«الأأجوندينة». ألقيت في وجه الغريب بالورقـة الأخيرة.

- تلك نخلاتنا النوبية.
- من قال ؟!
- أفي الدنيا مثلها ؟
- غابات نخيل في أركان الأرض وليست النخلة نوبية الأصـل.

هذا رجل ضال مضل مدسوس علينا لتشويهنا وتدميرنا.. فمـاذا أبقـى لنا؟ تساءلت متهكمًا:

- والأراجيد أيضًا ليست رقصة نوبية ؟
- هذه لكم.

الحمد لله. حسبته سيقول رقصـة زنجيـة أو عربيـة أو حتـى مصرية. إذن هو يعترف بوجود شيء يخصنا. لا بأس. ورغـم أنفـه فجدي قيمة كبيرة لقد علمني أشياء آمنت بها رغم تواضع معلوماتـه .. فهو يستقي ثقافته من الواقع المُعاش ومن القرآن. لا أبحر شـمالاً ولا جنوبًا ويعتقد أن النيل يأتي من السماء كهدية إلهية لنا ونحن نجود بـه على أهل الشمال. ويرى التمساح أكبر وأقوى كائن مائي رغم وجـود حوت «يونس» في نصوص القرآن. والضبع وحش خطير ولم يسـمع أو يبصر الأسود والنمور ولا شاهد أفيال «أبرهـة». والمعابـد التـي يتوافد عليها الناس من البلاد البعيدة لمشاهدتها مبهورين لم يدخلها فـي حياته لأنها من بيوت الكفار وشواهدهم. ولا سـمع عـن «رمسـيس»

و«سنفرو» و«بعنخي» و«طهراقا»، فهو لا يعرف غير «فرعون موسى» ويعتبر أهل الشمال من آل فرعون .. جبابرة طغاة. جدي والنيل والقرآن شيء واحد. ربنا قال وربنا أباح وربنا منع .. غير هذا لا يكون. وعندما أنقل له معلومة جديدة ؛ يفزع، يستغفر، يراها من علامات الساعة. وأنا أحبه رغم انغلاقه وجهله ودروشته؛ فهو طيب، مسالم، كريم وفوق كل هذا.. فهو في نظري نوبي قلبًا وقالبًا وصاحب المكان وليس أكذوبة كما يزعم صاحبنا الذي جاء يشوش علينا .. لكني لن أدعه يبث سمومه بين أهلي. سأسكته بالقوة ولا مفر من قتله مع أننا قوم لا نقتل كما أمرنا ربنا وينبغي مواجهة هذا الذي يزنّ كالدبور. القتل القتل. ورغمًا عنه .. هذه معابدنا، لا يهم من بناها .. لكن اسمها معابد النوبة. وهذا نيلنا .. ينبع من الجنوب أو الجحيم .. لا يهم .. لكنه يندفع إلينا هادرًا بطميه وخيره وفيضانه .. فنفسح له الطريق ونقدم له أراضينا فينام عندنا آمنًا، نحنو عليه ونغني له: نيل يا نيلنا» ونعامله بتقدير وتقديس ولا نلوثه بمائنا القذر ومخلفاتنا السامة. وهذه لغتنا، قد تكون حروفها مجهولة الآن .. لكننا في انتظار «شمبليون» آخر يفك طلاسمها حين يعثر على حجر في «إبريم» أو «قسطل» أو «كوبان» أو «حلفا» فيذهل الدنيا باكتشافه. أما «كتبه تيما» هذا فهو محتال .. بموته تنتهي أكاذيبه.

سمعت نباح كلبي عند الشاطيء، فأدركت أننا وصلنا لقريتنا.

-٧-

هذه «كيشيِّ» الجميلة الهادئة، تطل على النيل من عليائهــا فــي شموخ وكبرياء «كيشيِّ» الأمان والمودة وحسن الجوار بــين الكنــوز والعرب. الأغاني والأفراح وبنات «الكنــوزِ» بســمارهن وشــفاههن الموشومة وأقدامهن المخضبة بالحناء. «كيشيِّ» الماضي والحاضر .. وبلا مستقبل، فبعد شهور أو أعوام ستغمرها مياه السد وتصــبح فــي خبر كان. «كيشيِّ» الحكايات والأساطير والعــائلات العريقــة"؛ «آل عوض موسى»، و«آل إسماعيل» و«آل .. آل. «كيشيِّ» يــا حبيتــي رغم شهرتك كقرية آمنة، ستكونين مقبرة لهذا الغريب. أبدًا لن يفلــت أبدًا. نزلت وهو خلفي وجدي عند الشاطئ بحمــاره الشــهير وكلبــي يتقافز فرحًا .. يكاد يطير .. فهذا شأنه كلمّا سافرت وعــدت، جــدي يحتضنني. يرفعني محتضناً وكلبي يحاول الفصل بيننا، يزوم غاضــبا فهو أحق الكائنات للاحتفاء بي.

- لماذا تركت دراستك وعدت ؟

- لأكون معكم يوم الرحيل.

- مرحبًا ..

قدمت له الغريب، فسلم عليه بحرارة كعادتنا ثم انتحى بي جانبًا وسألني حائرًا:

- من يكون ؟

- ضيف.

- ليس من سنك.

- هو ضيف القرية.

- وماذا يريد عندنا ؟

- زائر عادي.

- من الحكومة ؟ طبيب ؟ موظف إحصاء ؟

- وهل يبدو شماليًا.

- في هذه الأيام يمر علينا أشكال وألوان من البشر ؟ ولسنا في وضع يسمح لنا باستضافة الغرباء وحمايتهم.

حكى لي جدي مرة، أنه في الزمن القديم كان البعض يفرون من الشمال بعد الاشتباك مع الحكومة في طريقهم للسودان وبالذات من أهل الصعيد، يمكثون عندنا أيامًا يستريحون ثم يواصلون رحلة الفرار. وكان بينهم أغراب مثل المماليك وغيرهم وكنا نوفر لهم الطعام والمأوى والأمان، وربما ظن جدي هذا الغريب منهم ..

- لا أظنه جاء يستجير بنا.

- حيرتني ؟

- سأحدثك عن موضوعه بعد حين.

- موضوع ؟ أجاء لنا بمواضيع. نحن لا تنقصنا المواضيع في أيام الكرب هذه. يا ريس .. انتظر .. لدينا راكب نزل عن طريق الخطأ .. خذه معك.

في الوقت الذي كاد فيه جدي يقوم بترحيل الغريب، جاء «العمدة» مهرولاً ومعه وفد رفيع المستوى؛ «ناظر المدرسة» و«موظف البريد». وأسرع نحو الباخرة صائحًا:

- انتظر يا ريس .. معك زائر مهم لم ينزل بعد .. انزل يا مستر «كتبة» .. أنت في «كيشي» الآن .. إنزل يا كتبه بك. من خلفي جاء الرد فأصبت بالحيرة:

- ها أنذا !

نظروا إليه مندهشين. تساءل العمدة حائرًا:

- أنت !

- نعم .. البروفيسور «كتبة تيما كوداي».

- أنت ؟ كيف ؟

- حسنًا .. الباخرة أمامك .. ابحث عنه.

- حضرتك «كتبة بك» ؟

- هاك جواز سفري.

- لا أقصد .. إنما حدث بعض الخلط.

- هل ثمة مشاكل ؟

- لا أبدًا. أهلاً وسهلاً. لقد أبرق لي مدير الأمن أن أحسن استقبال عالم إنجليزي .. ولم أظن .. حسبتك .. لا يهم .. لا يهم. كلنا

أولاد حواء وآدم .. الأسمر والأسود والأحمر والأبيض. تفضل أهلاً وسهلاً .. أنت الآن في ضيافتي. أن يكون هناك إنجليزي من لوننا فهذا مدعاة للفخر .. يا أهلاً.

أفلت الصيد، فالرجل في ضيافة الحكومة .. فمن يكون ؟ أهو مثلي متطوع في منظمة للكبار تشبه منظمة الشباب وله دور محدد ؟ أهو كما زعم أم أنه له وجه آخر مستتر ؟ أهو بصاص متنكر ؟ لقد سمعت عن صور شتى يتنكر فيها المخبرون .. ومما تخشى الحكومة فتدس علينا بصاصيها ؟ فأين اليقين ؟ كدت وجدي أن ننصرف لشأننا لولا تمسك الغريب بي كمرافق. ذهبنا لدار العمدة وتقاطر بعض الرجال لمشاهدة الإنجليزي الأسود. أكلنا. شربنا. ثرثرنا. انفردت بجدي وشحنته ضد الغريب ومزاعمه. عض يده ما بين السبابة والخنصر كعادته حين يغضب أو يتوعد خصمًا. وجدي قد يعفو ويتسامح ويبتلع أي إهانة إلاَّ فيما يخص الأمراء «شرف الدين» و«نجم الدين».. وينسبها لآل البيت وينطق اسميهما بتقديس. سمعته يسب الغريب في سره بلغتنا: «نقد* .. زربون». هل سمعه غيري فيسبب لنا حرجًا ؟ ظل صامتًا، يتحرك بعصبية وتوتر .. يقعي، يتقرفص، يقوم .. لا يستقر على وضع وفي حالة تحفز حتى واتته الفرصة، أعرف كيف سيتصرف .. سينتقم بطريقته، فهو يجيد استعمال الكلام دون اليد ..

---

* نقد: عبد.

- يقول حفيدي أنك من جبال النوبة ؟
- نعم .. جذوري منها.
- وهل باعوك للإنجليز طفلاً أم خطفوك ؟
- لا أفهم ؟!
- كان عند أبي ثلاثة رقيق أصلهم من تلك الجبال.
- أبوك كان من «الجلابة» ؟!
- أبي كان شيخ عرب.
- وكان له وجه قبيح.
- أبي ؟!
- من كلامك.
- اللهم طولك يا روح.

كانت الحالة قد وصلت لدرجة الانفجار وعلى وشك أن يشتبكا. قذائف جدي الثقيلة أصابت الغريب في مقتل، لو أن جدي ركله، ضربه، بصق عليه لكان أهون. ناظر المدرسة نكس رأسه خجلاً. موظف البريد نفخ في غيظ والغريب ينظر للجميع في ضيق والعمدة لوح بعصاه في وجه جدي مرات ثم انفجر ..

- مالك كبرت وخرفت يا «حاج محمد». لولا سنك ومقامك .. لكان لي معك شأن آخر ..

- أكان لأبي وجه قبيح يا عمدة ! أليس هو سيد هذه البلاد ؟

أضاف موظف البريد مؤازرًا العمدة :

- هذا لا يصح .. أبدًا لا يصح .. ومتى كنا نتباهى باسترقاق الناس ؟

قال الناظر مؤنبًا :

- هذا عالم جليل يا حاج «محمد» وليس مثل الغلابة الذين التقطهم أبوك من التيه أو اقتنصهم من «الجلابة» عنوة.

وقال موظف البريد:

- وأظنهم كانوا زنوجًا، أنوفهم مفلطحة وشفاههم غليظة.

- أيًا كانوا .. فنحن لا نسترق الناس.

- حصل خير وحدوا الله.

وحدوا .. استغفروا. عاد الصفاء. وبحركة مباغتة قام جدي وصافح الغريب وقبل رأسه. هكذا يحدث عندنا في الغالب، يتشاجر الناس، يتسابون ثم يتصافحون ويقبلون رءوس بعضهم ولا تصل لدرجة التشابك بالأيدي أو رفع السلاح. وندر أن بات أحد المتشاجرين متخاصما. وأبدًا لا تخرج الخصومات من حدود القرية وربما النجع. تساءل الناظر في هذا الجو الودي:

- مستر «كتبة» .. ألاّ تقدم لنا نفسك ؟

- كما تراني أمامك يا أستاذ.

- أقصد .. هذا التداخل بين الإنجليز وجبال النوبة وإجادتك العربية ؟

- كالعادة .. كان أبي يعمل عند الحاكم الإنجليزي فتوسم الرجل فيّ بعض الذكاء فعلمني القراءة والكتابة وأرسلني للقاهرة فواصلت

دراستي تحت إشرافهم ثم استكملت دراساتي العليا في لنـــدن وأعمــل الآن في جامعاتها وتجنست .. على فكرة يا جماعة .. نحن نسايب.

- كيف ؟

- تدخلت مفسرًا :

- زوجته مصرية.

قال العمدة :

- هذا يفسر اهتمام الحكومة بك. ثم استطرد :

- عن أي شيء تبحث عندنا يا مستر «كتبة» .. فليس في قريتنا معابد.

- لا شأن لحكومتكم برحلتي.

- نحن في خدمتك.

- مهمتي بسيطة.

- وما هي ؟

- في الواقع .. لست من علماء الآثار .. لكني أقوم ببحث مجاله (الأحياء المعمرين) في هذه المنطقة .. فثمـــة خـــيط ضــائع أحــاول الإمساك به .. وقد التقيت في لندن بعالم أَلَفَّ كتابًـا عــن (حضـــارة النوبة) .. فوجهني لمعمر يعيش عندكم ويظن ذاكرته فريدة.

- كان الرجال عندنا يعمرون .. الشمس والنيل وراحة البال.

- مطلبي شخص محدد.

- ومن يكون.

تدخلت :

- «كنود».

قال جدي ممتعضًا وساخرًا :

- «كنود» .. رماد فأله.

وتناثرت تعليقات أخرى:

- أبورتي* .

- «كنود» الأرمود.

- وبماذا يفيدك ؟

- أسافرت كل هذه المسافة من أجل «كنود» ؟

- عجائب والله .. صار لصغار الشأن قيمة.

- كل هؤلاء الأفاضل في بلاد النوبة ولم يقع اختيارك سوى على «كنود» ؟ حسنًا .. خذه معك وأرحنا منه.

قال الغريب :

- قد أفعل لو تطلب الأمر.

وقال العمدة :

- هيا بنا لنرى حكايته.

---

* أبورتي: الرماد.

-٨-

هذه دار عائلة «كنود» فوق جبـل «العليـاب»، كئيبـة غبـراء ومعزولة عن نجوع القرية. دار منفـرة لا تسـر النظـر، جـدرانها متساقطة وواجهتها غير مطلية ولا تزينها أطبـاق الصـيني. وقبـاب الغرف الداخلية أذابتها سيول (عام الطوفان). غرفة واحدة تم تسـقيفها بجذوع النخيل وألواح الخشب. باقي الغرف مفتوحة للسماء. لا شـيء يدل على وجود حياة وأحياء. لا أطفـال يتعـاركون ويتصـايحون، لا امرأة تنوح أو تغني. لا كلب ينبح. لا معيز تمأمئ. لا دجاج يكـأكئ. وحين تجوع الذئاب والثعالب وتداهم القرية لا تدنو من هذا البيت أبدًا. والباب الخارجي يظل مواربًا، الناس يدفعون ويدخلون. يضـعون لـه الطعام وينصرفون، يفعلون هذا كل يوم، بالتناوب، كل عائلـة تتـولى إطعامه يومًا .. عدا عائلتنا.

وعائلة «كنود» مغلفة بالغموض وليس لها نسب بعائلات القريـة من «كنوز» و«عرب»، لا تناسبوا ولا تداخلوا. وهناك حكايات تروى عن جدهم الأول. قيل إنه نزح بعائلته من «كردفان» أو «دنقلا» بعـد

تنازعه مع آخرين على أرض أو زعامة أو كرامة وقيل إنه كان من المحاربين الأشداء. وقيل رأس قبيلة أيضًا وفي نزوحه نزل بـ «أدندان» و«أبي سمبل» وتعارك أيضًا مع الكُشاف وبقايا المماليك فواصل النزوح وكان ينوي الاتجاه شمالاً حتى مصر ليشكو للسلطان الظلم الذي لحق بقومه، وفي فترة استراحته عندنا هاجم بعض الأغراب قريتنا يريدون اقتلاع الزرع وسرقة الماشية، وأظنهم كانوا من (البشارية) الجياع فتصدى لهم قوم «كنود» وكان معهم سيوف وحراب .. وهي أسلحة لا نعرفها وهزموهم وطردوهم. فأكرمهم قومنا ورحبوا بهم فاستقروا عندنا وبنوا دارهم فوق الجبل وكانت تبدو كالقلعة يصعب الوصول إليها بيسر وكأنهم كانوا يتوقعون مطاردين. كانوا بناءين ونجارين وصيادين مهرة وأدلاء. تقوقعوا في جبلهم ولم يمتلكوا أرضًا ولا تناسبوا فأنقرضوا بالموت والهجرة، بعضهم إلى مصر وآخرون إلى السودان وبرز من أبنائهم فارس في حرب «المهدية». وكان آخر من مات «كنداري» زوجة «كنود». ولم يبق من هذه العائلة الغريبة غير «كنود». وتلك كلها أقوال مرسلة وأساطير وقد قيل يخاوون الجن وقيل يسحرون. وقيل سبب حبهم لقريتنا أن الكُشاف والمماليك لم يطأوها وظلت خالصة للكنوز.

حمّلني جدي نصائحه ونحن في طريقنا إليه أنا والعمدة والغريب:

- لا تدعه يلمس خصلة من شعرك أو يلتقط شيئًا منك. لا تأكل ولا تشرب عنده. لا تدعه يستدرجك في الحيث. كن حذرًا وحوقل واقرأ (الصمدية) كلما استشعرت منه خطرًا.

لمّا دنونا من داره شهق الغريب بإعجاب :

- هذه قلعة وليست مثل دوركم.

التقط لها صورًا ودار حولها مرات ثم دخلنا. كانت غرفة «كنود» عارية تمامًا ليس بها سوى «العنجريب»* وصندوق وعلى الجدران بقايا مقتنيات العروس النوبية وصورة لرجل أبيض في برواز وأتربة وخيوط عناكب وضوء شحيح. والرجل شعر بنا فاعتدل بصعوبة ورحب بنا بإيجاز وصمت. «الغريب» جلس بجواره، يداعبه ويتودد إليه. والعمدة اتخذ الصندوق مجلسًا. وأنا، وقفت بجوار الباب. الرائحة العطنة لا تطاق وكأننا داخل مقبرة حتى كلبي لم يطق فظل يتجول في الحوش. وكان الصمت وكان الترقب. فتح «الغريب» حقيبته، أخرج منها غليونًا وقداحة وعدة أكياس من التبغ وقدمها لـ«كنود»، الذي فرح بالهدية كالأطفال وأخذ يتشمم الدخان بتلذذ قبل أن يَحشو غليونه، سحب عدة أنفاس متلاحقة، سعل، بصق وصار غير من كان؛ عيناه الميتتان صار لهما بريق. ضحك. تبادل القفشات. اعتدل. دبت في روحه الحياة قال وهو يقبل كيس التبغ بوله ومشيرًا للعمدة بقلق :

- من فضلك يا عمدة .. اجلس بعيدًا عن صندوق «كنداري».

- لا تخش .. إنني أجلس على الحافة.

وعاد للغليون يحشوه في تأنٍ وصبر. قال معلقًا :

---

* العنجريب: السرير.

- لو وجدت هذا الشيء .. ما ركبني الهم والكبر.

انحنى وقبل «الغريب» بحميمية وامتنان وتساءل:

- من أنت ؟

- صديق.

- وكيف عرفت أنني أحب هذه الأشياء.

- نصحني أحدهم.

- ومن يكون ؟ ربما أحد أحفادي في مكان ما.

- مستر «نيلسون» .. هو الذي دلني عليك وعلى ما تحب كالدخان وغيره.

- «نيلسون» .. «نيلسون». آه .. ذلك الرحالة العظيم .. ستجد صورته عندك أعلى الجدار. كان عاشقًا للنوبة وأهلها. تعلم لغاتنا وصار كأنه منا وكدنا نزوجه نوبية لولا ديانته. عملت معه دليلاً وطاهيًا في قلعة «إبريم» و«كوبان» و«دنقلة». وكان ينكش أحيانًا ويحفر بالأيام بحثًا عن أشياء سخيفة يسميها أدلة وقرائن. وكان يطير فرحًا حين يعثر على قلادة أو برام أو جمجمة وقضى أيامًا يتعبد في «أبي سمبل» أظنه كان يعاني من بعض الهوس. وحين زرنا معًا جبال النوبة قال جملة لم أفهمها حتى الآن: ها هنا الحلقة المفقودة. ماذا كان يعني ؟

قال مستر «كتبة» باسمًا :

- لا عليك .. واصل.

- يا إلهي .. أولئك القوم العراة المساكين، الغريب أن بعض مفردات لغاتنا موجودة عندهم ورقصة الكف الكنزية أيضًا. كان هذا من زمن بعيد .. بعيد جدًا. تراسلنا فترة ثم انقطعت بيننا السبل فخلته مات. فكل الناس يموتون سواي. لا أدري لماذا ؟.

ثم صمت ونظر إلى مستر «كتبة» وتمتم بكلمات خافتة مترددة :

- ارفع صوتك قليلاً .. ماذا قلت ؟

- مستر «نيلسون» .. ألم يقل عن أشياء أخرى أحبها ؟

- قال.

- وهل عملت بالنصيحة ؟

- بالتأكيد.

- حرام عليك .. هيا يا رجل .. ماذا تنتظر.

نظر «الغريب» لي وللعمدة متحرجًا .. فوكزه «كنود» متلهفًا :

- هات يا رجل ودعك من هؤلاء الدراويش.

أخرج «الغريب» زجاجة من حقيبته الثمينة، صب منها سائلاً في غطاء الزجاجة وقدمه لـ«كنود»..

- نستأذنك يا عمدة.

- لكم دينكم ولي دين.

«كنود» شرب السائل بسرعة وطلب المزيد، هات يا رجل .. هات يا رجل. بعد عدة جرعات هب «كنود» من فراشه، رفس الغطاء ووقف كالعفريت كأنه ميت بعث، مارد خرج من قمقم. ثم غنى بصوت مبحوح :

«كنداري يا حبيبة

يا دنيا يا شفوقة

يا دنيا يا خئونة

اخدتي ليه كنداري».

قال العمدة مواسيًا :

- وحد الله يا شيخ .. أطلب الرحمة لـ«كنداري» ولأولادك.

- كلهم ماتو أو هجوا وتركوني وحيدًا.

استجدى «الغريب» وحصل على عدة جرعات أخرى ثم انخرط في بكاء حاد عنيف واضعًا رأسه بين كفيه. نهره العمدة :

- لا تكن طفلاً.

- الوحدة صعبة يا عمدة .. ليس معي غير صندوق «كنداري».

- كلنا حولك.

- يضعون لي الطعام وينصرفون وكأنني كلب.

- احمد الله أنك في بلادنا تجد من يطعمك، في بلاد أخرى، الناس يموتون جوعًا على الأرصفة.

- وهل الطعام وحده يكفي ؟ أين الناس والونسة ؟

- هذا موضوع آخر ..

- أنت مثلاً .. متى زرتني ؟

- مشاغلي كثيرة.

- ألست من بين مشاغلك ؟

- عندك حق ..

وكأنه اكتشف وجودي، حدق في وجهي متسائلاً :

- أنت ابن من ؟

عرَّفته بنفسي وبعائلتي متجنبًا نظراته كما نُصحت رغم عدم إيماني بالحسد وبخرافات قريتي..

- عمومًا هذه فاتحة خير، فأنت أول زواري من عائلتكم. أتعرف سبب قطيعتهم لي ؟

- لا أدري ..

وكأن زيارتي قد مست جرحًا قديمًا، اتكأ بالحائط وأشعل غليونه وتناول كأسًا ثم عاد للماضي البعيد يستدعيه. قال: «منذ خمسين عامًا أو يزيد قاطعوني وكادوا يطردونني من القرية لأنهم تصوروني السبب ي مقتل جدكم الكبير والد جدك «حسن أحمد». وكبير عائلتكم يا ابني كان أهم رجال هذه القرى، أغناهم وأكثرهم نفوذًا وجبروتًا. «حسن أحمد» هذا يا ولدي كان طاغية بلا قلب. بنى قصرًا واقتنى العبيد .. وكلهم تقريبًا كانوا من بلد هذا الضيف. مات بعضهم من التعذيب وباع البعض ولم يبق لديه سوى «مرجان».. كان هذا الولد قويًا صبورًا تحمل كل أنواع التعذيب من القيام بدور أبقار الساقية والكي بالنار وتسمير أذنه بالأشجار. «حسن أحمد» كان مريضًا ويحب تعذيب البشر مثل أي جبار من الأتراك وبعض أمراء العرب والمماليك. المسكين كان يهرب منه ويلجأ لبيتي مستجيرًا فأعيده وأوصيه عليه: يا حسن أحمد، اتق الله. يا حسن أحمد خاف الله ويوم الحساب. ذات مساء وجدنا مرجان يطرق بابنا وهو على شفا الموت. تلقيناه أنا

وكنداري رحمها الله. أطعمناه وعالجناه .. يا للبشاعة، كان مكويا في كل جسده .. إليتيه، خصيتيه، لسانه. ولم يكن بوسعنا حمايته قالت كنداري: ساعده على الهرب. سرّجت له حماري الوحيد وزودته بالطعام وقربة الماء وهراوة. لكن كنداري نكشت في صندوقها وأخرجت منه سيفا لم أر مثله من قبل وقالت له مشجعة: هاك .. سيف جدنا حاكم النوبة وأمض إلى أهلك وإن أكلتك الذئاب أفضل من أنياب هذا الغول وإن لحق بك حسن أحمد، اقض عليه ولا تخشه هذا سيف الفرسان وكان ملكا لفارس عربي .. انتزعه منه جدنا وقهره .. واسمع جيدًا . إن عاد «حسن أحمد» بهذا السيف وبك .. سوف أقتلك. ولمّا علم الظالم بفرار «مرجان»، هددني بالقتل وطارده ثم اختفى، بعد ثلاثة أيام قام فريق من الرجال باقتفاء أثر جدك وحماره. وجدوه عند وادي «العلاقي» ممزقًا إلى ألف قطعة ولا أثر لـ«مرجان».

في الواقع لم أكن معاديًا لجدكم الكبير رغم طغيانه إنما ضد مبدأ الاسترقاق وهذا من الأشياء الجميلة التي تعلمتها من مستر «ويلسون». وكثيرًا ما تعرضت للجلاّبة ومرة أشفقت على رقيق فاشتريته وأطلقته. بهذا يا ولدي أمرنا الإسلام. وهكذا فعل نبي الله محمد. تلك حكايتي مع عائلتك».

ومض في ذهني خاطر سريع مشاكس – فأخذت أتنقل بنظراتي بين «كتبة» و«كنود» اكتشفت أن تطابقًا يجمع بينهما، فـ«كنود» لا يشبه جدي ولا العمدة ولا أي من سكان قريتنا، إنما هو أقرب لسليل جبال النوبة. حدث تحور وتطور عند «كنود»، لكن أهم ما يجمعها

هذه العيون العسلية البراقبة الجميلة و«الكاف» المشترك بين الإسـمين فجأة وجدتني أسأل :

- عم «كنود» .. مستر «كتبة» هذا .. أهو قريبك ؟

قال العمدة مستغربًا :

- يا لك من إبليس .. ما الذي جعلك تتصور هذا !

علق الغريب فرحًا :

- بل هو شاب لماح وذكي.

رد العمدة :

- وما الذي يجمع الشامي بالمغربي ؟

مستر «كتبة» يلتقط كل كلمة عبر جهاز تسجيل ويشجع «كنـود» على البوح بالمزيد من الشراب و«كنود» كأنه يهلوس .. يتحدث عـن أجداده الذين لم يخالطوا الزنوج ولا العرب والأتراك والمماليك وربمـا حتى الفراعنة، وجدود «كنداري» حكموا قلعة الجبل وصندوقها الثمين هذا ورثته عن السلف وحافظت عليه حتى طلوع الروح وأوصتني به، فأوفيت بعهدها.

كان مستر «كتبة» يتأمل الصندوق بانبهـار شـديد مـن كافـة الزوايا..

- ماذا بداخله ؟

- أشياء «كنداري» وأهلها.

- مثل ماذا ؟

- الله أعلم.

- ألم تفتحه لنا ؟
- هذا عندما عيب والأغراب لا يتجاوزون السبيل.
- ملابسها مثلاً ؟
- لا أدري.
- شوقتنا ..
- هي نفسها كانت تتجنب فتحه أمامي.

الصندوق كبير وليس كصناديقنا. في حياتي لم أشاهد صندوقًا بهذا الجمال ودقة الصنع. كأنه صندوق ملك. ورغم دخول القوم بالطعام كل يوم في هذه الغرفة، فإن أحدًا لم يتحدث عنه أو لفت أنظارهم .. فهو مجرد صندوق وحسب. لكن «الغريب» اكتشفه، أقعي بجواره واستخدم بطارية وعدسة مكبرة لقراءة النقوش والرسومات، تابعته حين سلط الضوء على صورة امرأة حسناء تحمل طفلاً أجمل منها. مندهشاً هتف «الغريب»: يا الله .. يا الله.

وبدوري قلدته: صلاة النبي. مثلما تقول أمي عندما يبهرها شيء رأيت عشرات الصور من شتى الأماكن والمجلات، لكن هذه ليست مجرد صورة، إنما حقيقة ينقصها الروح لتنطق وتبربش بعيونها وتتحدث معنا. لكن بأي لغة ستكلمنا هذه البيضاء الساحرة ؟

الألوان زاهية والعيون ساحرة. من تكونين يا ربي ؟ بالتأكيد ليست «كنداري». ومع ذلك سألت:

- أهذه صورة «كنداري» يا عم «كنود» ؟

ضحكوا من سذاجتي وعبطي وقال العمدة ساخرًا :

- «كنداري» كانت شبه الغولة.

رد «كنود» عليه بغضب:

- وأمك البومة.

العمدة عاود السؤال:

- من هذه يا «كنود» ؟

- ملاك يا عمدة.

- أهي زوجة الخواجة «نيلسون» ؟

تعلقت أبصارنا بصورة الرحالة المعلقة في عملية مقارنة ساذجة، قلت مستعرضًا معلوماتي:

- رأيت مثلها في إحدى كنائس «أسوان».

مستر «كتبة» حسم المسألة :

- إنها «العذراء» يا جماعة.

صاح العمدة بتقدير ودهشة :

- «مريم البتول» .. عليها السلام.

ثم أضاف متسائلاً بعد برهة قصيرة :

- لكن يا «كنود» .. ما الأمر ؟ أكنت تصلي معنا الجمعة وأنت نصراني ؟

العمدة طرح سؤالاً ملغمًا في بيئة متسامحة؛ فقومنا لا تطرح بينهم مثل هذه الأسئلة، المسافات بين العقائد غير محسوسة عندنا، لا يحفرون وراء المسائل بدليل أن العمدة المتدين الوقور يجلس الآن بين إثنين يتعاطيان المنكر أمامه. إنهم يعمدّون أطفالهم في النهر كعادة

متوارثة ولم يسألوا أنفسهم يومًا؛ أهي عادة فرعونية أم نوبية أم قبطية و«ضبة» الباب على هيئة صليب وأمي تقول مستجيرة : أنا في عرض «مريم». مع أنها لا تعرف من تكون «مريم» هذه ؟ وتظنها من آل البيت مثل السيدة «زينب». وحتى لو عرفت، لن تتغير مشاعرها فهي أم نبي مثلما الست «زينب» بنت نبي. ومع ذلك، فالعمدة مازال في منطقة الألغام:

- مستر «كتبة» .. القرية المجاورة لنا اسمها «ماريا»، زرها ربما تجد فيها ضالتك.

- يا عمدة .. لست قسًا ولا مبشرًا إنما أبحث عن موضوع ليس له علاقة بالأديان.

- وما هو ؟

- «كنود» يا عمدة ؟

- ماله ؟

- أظنه من سلالة النوب.

- النوب ! من هم النوب ؟

- الأصل الذي أنتج الفروع.

لا تدخل بنا في متاهة يا مستر، لا يوجد في «كيشِّي» غيرنا والعرب.

- يوجد يا عمدة عنصر رئيسي وثالث يمثله «كنود».

- لا أفهم ما تعني و«كنود» منا رغم غرابة اسمه.

صحيح. ما هذا ؟ «كنود» .. «شكندة». «جدكاب». ثم (كشّي. كا. كَلْ. كلو دول. كا جي)*. هذا الكاف المشترك بين الأسماء والأشياء. تساءلت محاولاً تطبيق القياس على أشجار عائلتنا :

– لما لا ندع «كنود» يذكر لنا بعض الأسماء.

تدخل الغريب مقاطعًا :

– لا تجهدوه .. دعونا في الأهم .. يا عم «كنود» .. افتح لنا هذا الصندوق إكرامًا لي ..

– لا أستطيع ..

– حسنًا .. بعه لي.

– صندوق «كنداري».

– «كنداري» ماتت.

– عاهدتها.

– أدفع مائة جنيه.

– في صندوق من الخشب ؟

– مائتان.

– أأنت جاد.

– خمسمائة.

– هل سكرت يا مستر «كتبة» ؟

– كم تريد .. قل ؟

---

* كا: بيت، كَلّ: خبز. كلو دول: الساقية الكبيرة، كاجي: معي.

- قلت لا إله إلا الله.

- ألف جنيه ولن أزيد.

- ما الحكاية ؟

دهشة وذهول. عبث. جنون. مستر «كتبة» سِكر أو بالصندوق سر لا يعلمه سواه وجاء خصيصًا من أجله وكل هذا الهراء عن النوب وبحثه عن الخيط المفقود مجرد تغطية وأن بين الأجهزة التي يحملها من بطاريات وكاميرات وجهاز التسجيل شيء يكشف أعماق الأماكن المغلقة. بالتأكيد عرف الآن السر وما يحتويه الصندوق من كنوز الملك «سليمان» ! ألف جنيه في قريتنا ثروة هائلة. أكبر وارث للأرض حصل على نصفه كتعويض بعد بناء (خزان أسوان) ويأتي هذا المعتوه ويدفع ضعفه في صندوق من الخشب. هذا جنون .. منتهى الجنون. أهو جاد في هذا العرض.

- ألف جنيه يا «كنود» .. ماذا قلت ؟

- والله العظيم ولا بعشرة جنيهات.

العمدة فطس من الضحك وأظنني شاركته و«الغريب» رفع حاجبيه دهشة ..

- فضحتنا يا «كنود» أمام الأجانب؛ الرجل يقول ألف وأنت تقول عشرة. ألا تفرق بين الأرقام يا رجل .. ألف يا حمار، يخرب بيت أهلك.

- لن أبيع والسلام.

العمدة :

- بع يا «كنود».

- لن ترغمني يا عمدة.

العمدة يقترب من «كنود»، يهزه، يقول في غيظ :

- يا مغفل .. ألف جنيه يسترك باقي عمرك وتعيش محترمًا بدلاً من حياة الضنك والتسول. الناس هنا يطعمونك ويكسونك لوجه الله. أما في البلد الجديد فمن يدري ؟ فرصة واتتك فلا تبددها ؛ وأنت على أبواب القبر .. بم يفيدك ؟!

- رائحة «كنداري» وجدودي، دقق يا عمدة في هذه الصورة التي تزن الواجهة، حين يضيق بي الحال وتسحقني الوحدة أتأملها فأرتاح، تغمرني السكينة .. كل ليلة أغمض عيني عليها فلا تهاجمني الكوابيس. أتونس معها، أحدثها وتحدثني تتسامر معي وطفلها دائمًا في حضني، يلاعبني، يملأ الغرفة شغبًا وشقاوة. تصدق يا عمدة .. مرة، أقصد ذات ليلة، داهم ذئب غرفتي هذه وكاد يفترسني، استجمعت قوتي وقفزت فوق الصندوق. وكلمّا اقترب مني، تسحبه قوة للوراء، وأخذ يحملق في الصورة ثم تراجع في هدوء .. فكيف أبيع صندوقًا به صورة كهذه ؟

- أنت تهلوس يا «كنود» سآتيك بالمصحف الشريف يقيك ويحفظك.

- لن أبيع. ولكن تقديرًا مني لهذا الضيف ومشواره الطويل وهداياه سأوصي به له بعد مماتي .. هذا عهد. هات يا عمدة ورقة

وقلمًا وأكتب وصيتي. ما رأيك يا مستر «كتبة» ؟ وأنت يــا عمــدة .. هل تنفذ الوصية ؟

- شهادتي وهذا الشاب تكفيان. لا حاجة بنا لأوراق وأقلام. قــم بنا يا مستر «كتبة»، تعال أريك صندوقي، لو أعجبك، خذه بلا مقابــل أو ادفع ما تجود به. فهذا رجل مجنون .. داهية تشيله.

- ٩ -

هذا يوم الصناديق، مثلما نقول يوم مولد النبي ويـوم عاشـوراء ويوم زواج ابن فلان أو موت فلان، مناسبات تؤرخ بها أيام «كشّـي». وهذا أغرب يوم في حياتنا وربما في الدنيا كلها. صناديق. أين تخطـو لا تجد سواها. أمام الأبواب. في الأحواش. في الشوارع. كـل النـاس باتو يحملون بالألف جنيه أو حتى بمائة. الناس جنوا. أصيبوا بهوس.

ومستر «كتبة» بدأ بصندوق العمدة، ألقى عليـه نظـرة سـريعة عابرة وانصرف لمشاهدة باقي الصناديق. قطع القرية طولاً وعرضًـا دون جدوى، كلها صناديق حديثة عادية لا تساوي شيئًا. يـئس وقـرر الرحيل لزيارة باقي القرى على امتداد النهر حتى «حلفا» بحثًـا عـن سلالة «النوب» وصناديقهم. لكنه سيترك خلفه قرية غيـر مـا كانـت وبشر غير ما كانوا. لقد أحدث بزيارته القصيرة شروخًا وتصـدعات. والناس يخمنون، يؤلون، يفسرون، يتراهنون. يحاولون الوصول لسـر «كنود» وصندوقه العجيب..

– ماذا تظنون بداخله ؟

- كنوز الملك سليمان ..

الملك سليمان لم يأت بلادنا أبدًا.

- إذن .. تاج «رمسيس» الذهبي.

- بل سيف «شرف الدين» المرصع بالماس.

- ذهب «كنداري» وجداتها.

- سبائك من ذهب وادي «العلاقي».

- يقولون جدهم الأول كان حاكمًا في السودان وهرب إلينا بثروة شعبه وهي مخبأة في الصندوق.

- و«الغريب» جاء سعيًا وراء هذه الثروة.

- يقولون أوصى به للغريب.

- نحن أحمق.

- أطعمناه وكسوناه والصندوق حق لنا.

- والوصية ؟

- ليست كلامًا منزلاً من السماء.

- مجرد كلام فض مجالس.

- نحن أصحاب كلمة يا قوم.

- ونحن أصحاب الحق يا فصيح.

- القول للعمدة.

- لن يتحالف ضدنا مع «الغريب».

- صدقوني يا ناس «كيشي».. لن تجدوا بداخله سوى جثة «كنداري».

هوس أصاب «كيشّي» الآمنة. كـابوس يـوم الرحيـل تراجـع درجات واحتل مكانه الصندوق. حتى الونسة في فراشـي الزوجيـة. أطفال المدارس. العواجيز. و«كنود» نفسه، من يكون ؟ من أين جـاء جدهم الأول ؟ أهو بشر أم جنى ؟ «كنود» الذي ولد هنا أبًا عـن جـد صار لغزًا. أهو مسلم أم نصراني ؟ «كنود» الـذي يصـلي ويصـوم وينطق الشهادتين باتوا يشكون في عقيدتـه. لمجـرد وجـود صـورة العذراء على واجهة صندوق ورثة. تخمينـات. تصـورات. خيـالات جامحة. في تلك الساعات العصيبة كنت ملازمًا للغريب فـي تنقلاتـه، سألته بإلحاح عن تصوره لمحتويات الصندوق الذي حير الناس ؟

رد بلا مبالاة :

- لا تعنيني سوى الواجهة والنقوش والكتابات ..

- وهل تدفع كل هذا المال في صندوق فارغ ! إنني مندهش ؟

- وقد أهديه في النهاية لمتحف القاهرة.

ذهبنا لـ«كنود» لكي يودعه «الغريب» قبـل اسـتئناف رحلتـه جنوبًا بمركب شراعي استأجره. تعانقا. بكيا. تصافحا بقوة وحرارة ..

- كم تظن عمرك يا عم «كنود».

- لا أدري .. لقد أكلت أخوتي وأولادي وأحفادي.

- ألديك ما تقوله لي.

- الصندوق لك بعد رحيلي.

- سأعود. حتمًا سأعود.

وقفا بجوار بعضهما. التقطت لهما صورة تذكارية. ونحـن فـي طريقنا للمركب الشراعي قال لي بإعجاب: «كنود» رجل فريـد، إنـه كنز. كنز حقيقي واكتشاف مذهل وذاكرة تاريخية نـادرة. لـو كانـت الحكومة المصرية تسمح لي. لأخذته معي لمعاهد الأبحاث في لنـدن. إنه في الواقع أهم من الصندوق والمعابد. ونحن نودعه عند الشـاطئ.. داهمني شعور غريب .. بأنني لن ألتقى به مرة أخرى.

-١٠-

هذا يوم الرحيل إلى الشمال، يوم الهول، يوم القيامة، يوم تـــرك «كيشّي» إلى يوم البعث. أصعب يوم. أطول يوم. هذا يومي الحـــرج. يوم المواجهة مع جدي والمســنين. أعـــاون العمـــدة دون أن يشـــعر بمهمتي. أراجع معه الكشوف والأسماء وأبث الوعي بنعومة وذكـــاء. قال العمدة محذرًا.

- راقب جدك.

- هذا عندي.

حين وصلت بواخر الترحيل وأطلقت صفاراتها. صوتت النســـاء وبكى الرجال. أول بكاء جماعي للرجال. هذا لم يحدث مـــن قبـــل ولا في المآتم. توقفت القلوب عن الخفقان وخرست الألسن عجز الناس عن ابتلاع ريقهم. سمعت أنهم زمان، كانوا ينزحون لأقصى الجنوب تحت ضغط حملات المماليك، لكنهم حين تهدأ الأمـــور وتنســـحب الحملـــة يعودون. الآن لا عودة. هجرة نهائية. سيظل السد حاجزًا بين مكـــانين. والعمدة مع خفرائه وميلشياته يتعجل المتلكئين. والكلاب تنبح بعصبية،

تتمسح بأصحابها تزحم الشاطئ. وهذا النباح المتواصل أصاب الصغار بالذعر والبكاء والكبار بالإرتباك. والأوامر صـــارمة: ممنـــوع سـفر الكلاب. حتى كلاب «ماريا» عبرت الجبل وخور «العلياب» وجـاءت تتقاتل مع كلابنا. والعمدة يحذر: الذي يتخلف، ستأكله هذه الكلاب قبـل الذئاب. الأرملة «فاطمة سليمان» ثارت عليه: حرام عليكم يا عمـدة .. لماذا لم تبلغ حكومتك مساعدتنا بشيالين ؟ وماذا أفعل بمفردي ؟ لا ولد ولا بنت، تركت سريري وصندوقي وحماماتي طارت من الأبـراج .. منكم لله .. ربنا قادر عليكم. وفي يوم الرحيل، كل مشغول بنفســه، لا تمتد يد العون إلاَّ للمسنين والمرضى. والعمدة لا يبـالي بمـن تـركن صناديقهن وأسرتهن .. كـل همـه رءوس البشـر حسـب كشـوف الإحصاء. أنا وجدي فوق حمارة نقلنا كل أمتعتنا عدا أزيـار السـبيل والرحاية والحمام الطائر والصندوق لثقله، رغم أني مصمم على نقلـه ولو بالسحب على الأرض. أختي كانت فرحة للغاية، تغنـي، اغتـاظ جدي. شتمها :

- اخرسي يا بنت الديوث.
- تسب أبي .. سأبلغه.
- تفو عليك وعلى أبيك.
- الملافظ سعد يا جدي.
- سعد لمّا يقطع لسانك.

تمادت أختي لتغيظه وغنت ألحان الشمال: «على بلد المحبـوب وديني».

- بلد المحبوب هنا يا فاجرة. جيل مسخوط عيكم لعنة الله.

ردت أختي بعناد :

- أنت يا جدي قضيت عمرك هنا وحبستنا معك في هذه البلاد الخربانة، الدنيا يا جدي خلف الخزان غير بلادنا. ماذا هنا غير الجبال والعقارب والذئاب والجوع. الذين عاشوا هناك يحكون لنا عن المتعة والراحة والخير الوفير. عمرك يا جدي أكلت العنب والتفاح والموز.. فكل فاكهتنا بلح على ألوان وأشكال ؟ القطارات يا جدي والكهرباء. أسمعت الراديو في حياتك ؟ أشربت ماءًا نقيًا كماء زمزم ؟ والأسرة الخشبية ومراتب القطن. ويا سلام يا جدي على المدمس والطعمية. أنت يا جدي تعشق الخرابات مثل ... .، القوم يريدون إسعادنا وأنت فرحان بمقابر الجدود وبأرض لا تنبت سوى القحط والعقارب وبالنيل وتماسيحه. إصح يا جدي. كفاك نومًا في الماضي: «يا وابور الساعة اتناشير يا مجبل عالصعيد..».

لوح جدي بهرواته. ابتعدت غاضبة، أفرغت شحنتها في جرة الماء، ركلتها بقوة فتدحرجت وتحطمت :

- اذهبي في داهية .. طَلعت روحي.

جرة الماء هذه، من أدوات تعذيب أختي، فهي من ضحايا المكان، تتحمل عبء تفاصيله، فأمي دائمًا تشكو متاعب الظهر فتنوب عنها في كل الأعمال الثقيلة. المسكينة طوال النهار تعمل، من الشروق إلى المغيب. لا تكف عن الحركة وكأنها جارية. تبكر لملء أزيار البيت والسبيل. أختي لا تعاني كثيرًا في شهور الشتاء حيث يكون

ﮮ

النهر جنب القرية. أما في الصيف، حين ينسحب النهـر بعـد سـحب مخزونه، فالويل لنا من لسانها فمهمتها تصبح صعبة وقاتلة، تأتي مـن المشوار الواحد تنضح عرقًا ودموعًا من الحرارة الشديدة والنهر البعيد تسب النهر والأرض والسماء وتطلب من ربنـا أن يأخـذها لترتـاح وتقول كلامًا يغضب جدي: نحن يا ربي نصلي ونصوم ونحتفل بمولـد نبيك. فلماذا تعذبنا نحن البنات ؟ ألست قادرًا على تثبيت النهـر جنـب البيوت ؟ ألست قادرًا على تفجير آبار زمزم فوق الجبال ؟ ألست قادرًا على تلطيف الجو ؟ أرني قوتك إن كنت قادرًا ؟

يفزع جدي من تجديفها ويقول لها مستغفرًا ومصححًا معلوماتهـا الخاطئة :

- ربنا يا بنتي ليس له دخل في صعود النهـر وهبوطـه، أهـل الشمال أقاموا خزانًا هو الذي يتحكم في النهر. ولابد من الليل والنهـار والصيف والشتاء. وبئر زمزم تفجر في أرض الأنبيـاء لا فـي أرض كافرة مثلك. سيأتي علينا يوم سيسخطنا فيه ربنا قرودًا بسبب لسـانك. قومي صلي جاتك البلاء الأحمر.

أختي طوال فترة الصـيف، تراقـب اسـتخدامات المـاء بدقـة وصرامة وتتشاجر مع جدي الذي يتوضأ خمس مرات في اليوم وتقول له كلامًا ثقيلاً بلا تحرج :

ألا تحافظ على وضوئك بين صلاتين .. أنت يا جـدي تـتحجج بالصلاة لكي تتبرد بالماء الذي تريقه دمي وعرقي.

وكنا نخشاها .. بالكاد نمسح وجوهنا في الصباح، نزل عن عيوننا «العماص». وكان جدي يهتم بأزيار السبيل لأسباب دينية ويعاتبها حين يجدها فارغة :

- السبيل يا «زينب».

- لا أقدر يا جدي .. الحر لا يطاق.

كان هذا اليوم قد تحول نهاره إلى لهب ؛ الكلاب ترقد لاهثة تحت الأزيار، المواشي انسحبت للزرائب الليلية الداخلية، العصافير كنَتْ فوق الأشجار، والرجال لاذوا بالنهر. وكل الكائنات تئن .. تستغيث بالرب. فهذا يوم من أيام الجحيم النوبي. وأختي خرجت بالجرة وعادت مسرعة وهي تصرخ :

- نار .. نار .. الدنيا ستحترق.

ولذا قالت لجدي محتجة :

- الرحمة يا جدي .. الرحمة مطلوبة.

- هذا ثواب يا بنتي .. وبالذات لو جاهدت في يوم كهذا .. ستدخلين الجنة بسبب هذه الأزيار.

- ادخل الجنة بمفردك ودعني لحالي .. الله يخليك.

جدي يستغفر الله وينادي على أمي غاضبًا :

- يا آشة همّد .. آشة هُوىْ .. بنتك كفرت.

- اسمعي كلام جدك يا «زينب».

- في ماذا يا أمي ؟

- هو القائم على أمرنا !

- يعني يقتلني ..

- لا تغضبيه والسلام.

- اسمع كلامه لو فرض عليّ عريسًا لا أحبه، في طلب يخصه، لو منعني من الخروج، في أمور الدين والأخلاق. لكنـــي لـــن أمـــوت بسبب أزيار الجنة هذه. أولاد الحرام يغتسلون ويتوضئون من أزيـــار السبيل.

- الطاعة واجبة يا بنتي.

- أمي.

- من أجل خاطري.

- ذنبي في رقابكم .. سأملؤها وعلى جدي مراقبتها. وتربة النبي لو رأيت أحدًا يغتسل، سأعفر وجهه بالتراب.

ومرة شاهدت عابر سبيل أرهقته حرارة الطقـــس فســـكب فـــوق رأسه طاسة ماء، طاردته وسبته: يا بن الحرام .. تغتسل بماء أكّدُ فـــي جلبه رح .. داهية تأخذك.

ولمّا سمع جدي بالواقعة، ثار ثورة عنيفة، ضربها بقسوة وحبسها وجند كل بنات النجمع، ليدخلن الجنة بدلاً منها.

هموم أختي ومتاعبها لا تقف عند متاعب مـــاء الصـــيف؛ خبـــز الصيف أيضًا له حكاية .. فالذرة (العويجة) تخرج من الرحاية خشـــنة

فيتم تنعيمها على صخرة «الجمنجي»*. عملية مرهقة للغاية، تستغرق وقتًا ثم تخمره وتخبزه. وتبدأ المأساة في عملية الخبيز، التي تتم فوق صاجة من الصلب على وقود الحطب، فيتحول الكانون إلى أتون وأختي تنفخ في الحطب وتبكي، تبتل ملابسها من العرق وتتوجه للسماء شاكية: يا ربي .. لماذا تعذبنا في الأرض دون كل البشر. وأحيانًا تتمرد: لن أخبز وسآكل العجين نيئًا .. الجائع منكم يتفضل، الكانون أمامكم.

أشفق عليها فأدخل الجحيم لمعاونتها، يراني جدي .. فينهرني:

- لا تكن بنوته، فللرجال مهام أخرى.

فترد عليه أختي متهكمة:

- طبعًا .. يلعبون السيجة ويستحمون في النيل.

لهذه الأسباب وغيرها، بدت أختي سعيدة بالرحيل وكنت مثلها لسبب مختلف فبين مدارس «أسوان» ومنطقة التهجير، مسافة ساعة بالقطار فأستطيع قضاء يوميّ الخميس والجمعة بين أسرتي والأهم من هذا أن وسائل القراءة متوفرة في «أسوان». وأمي تتأرجح بين حب المكان وخوفها من المستقبل حين تتزوج أختي .. فمن سيعاونها في أعمال البيت ؟!

أما جدي الوتد، فموقفه مختلف تمامًا. فهو يكن كرهًا عميقًا لخزان أسوان والسد العالي وكل ما يمت للشمال وأهله بصلة ويطلق

---

* الجمنجي: صخرة مجوفة لها يد صخرية.

عليهم آل فرعون. وعندما تزوج عمي بقاهرية، حــرم عليــه نــزول القرية وتبرأ منه. ولا يتعاون مع موظفي الحكومة ويوم جاءت لجــان حصر السكان والبيوت رفض مقابلتهم.

عشق المكان كان يسري في دمه كسريان الزيت في الزيتونة كما يقولون.

-١١-

الآن يرحل «كنود» وصندوقه العجيب الذي حيرنا. كنت مع العمدة وجمع غفير من الرجال لمساعدة «كنود» والصندوق الكنز. بين هؤلاء المتطوعين من ترك صندوقه أو سريره ومن لا يقوى على حمل نفسه، ومن لا يكن ودًا لـ«كنود». وأيضًا الناظر وموظف البريد. كلهم جاءوا. لا للمساعدة إنما لرؤية الصندوق ولمسه .. متوقعين شيئًا ما. شيئًا غير عادي ولا مألوف.

«كنود» يجلس في تبلد واستسلام مدخنًا غليونه وبجواره «صُرة». قال في حسم: دعو كل شيء كما هو وخذوني بسريري وصندوق «كنداري»، وضحك أحد الرجال وقال ساخرًا:

- وماذا عندك غيرهما ؟

أشار له على الحوائط المزينة بمشغولات العروس النوبية .. تركوها كما هي. تنافسوا على حمل الصندوق و«كنود» حمله أحد الأقوياء. الغليون في فمه والصرة في يده. الصندوق كأنه نعش يتجه للنيل وليس للجبانات. و«كنود» لا يكف عن النصح: على مهلكم يا

رجال. هذه السكة أضمن. إياكم والتعثر. حاذروا الحفـر والمطبـات. حتى وصلوا للمنطقة الحرجة؛ المدق الهابط للنيل. كنا ونحن صـغار، نلهو في هذه الرقعة، نتدحرج منها للنيـل ونتسـابق. ومثـل وقـوع الزلازل، وقع المحظور. تعثر أحد الحاملين بحجر ومال ثم كبا. اختـل توازن الآخرين فسقط الصندوق من بين أيديهم وهوى لأسـفل محـدثًا دويًا هائلاً، وتدحرج مرتطمًا بالصخور وتحطم .. فتناثرت محتوياتـه. صرخ «كنود» ولطم كالنساء:

- «واجوري .. واجوري»*.

أخذ يلطم بقوة وقسوة ويصرخ صراخًا أرق المـوتى. وانتابتـه أزمة قلبية حادة .. فشهق ومات.

والرجال .. كل الرجال، تركوا الجثة واندفعوا لأسفل يتسـابقون، يتدافعون، يتعثرون حتى وصلوا لحطام الصندوق وانتشـروا يبحثـون عن كنوز الملك سـليمان وسـبائك دهـب وادي «العلاقـي» وحُلـيّ «كنداري» وجداتها. وكلمّا وجد أحدهم شيئًا وأمسـك بـه يلقـى بـه ساخطًا:

- وتّجيندي»**.

لا شيء. لا دهب ولا كنوز ولا حتى جثة «كنداري». لا شـيء له قيمة ومعنى الشيء الوحيد المفيد هو الكفن علـى عـادة المسـنين.

---

* واجوري: يا خسارة.

** وتّجنيدي: يا للقرف.

الرجال وقفوا في ذهول لا يصدقون. ما هذا الهبل ؟ أي مجنون هـذا ؟ وما هذه الأشياء العجيبة ؟ وما معنى احتفاظه بهـا ؟ سـيوف قديمـة صدئة. حراب ونبال. دف قديم. علم. ملابس غريبـة مهلهلـة. تـاج. تماثيل صغيرة لمساخيط. رقعة من جلد الغزال ملفوفة بعناية. فتحوهـا فوجدوا كتابة غريبة ليست عربية. قال العمدة اسفًا:

- رجل مجنون .. كل هذه المدة ولم نكتشف جنونه.

وأضاف ناظر المدرسة:

- هذه أدوات سحر وشعوذة.

وقال موظف البريد باصقًا في «عبه»:

- كان مخاويًا للجن .. وهذه أدواتهم.

تذكر أحدهم الصرة التي كان يحملها «كنود» .. فهتف مسرورًا:

- الصرة .. الكنز في الصرة.

ركضوا صاعدين في سباق رهيـب حتـى وصـولوا للجثـة، استخلصوا الصرة من يده وفتحوها فتناثرت على الأرض كميـة مـن الطمي الناشف.

- تراب .. كان يحمل ترابًا !

- ادفنوه وخلصونا منه ومن جنونه.

- والله العظيم لولا مخافة الله لتركناه للذئاب تنهشه.

كفنوه، دفنوه حيث هو. وكان آخر من مات في الــبلاد القديمــة وأول من دفن بلا طقوس، بعيدًا عن الجبانات، لا حملوا نعشه للمسجد. لا صلوا عليه. لا صوتت امرأة. ولا حتى تشهدوا عليه لحظة طلــوع الروح.

-١٢-

لحظات أخيرة قبل الرحيل، جدي استمر يبكي في صمت طوال فترة نقل الأمتعة، نعم هي لحظات صعبة وقاسية، أمي جلست تعدد وتبكي موتاها في الجبانة، نقلنا كل شيء عدا أزيار السبيل و«الچمنچي» لثقله وعدم جدواه في البلاد الجديدة والصندوق الذي كنت مصممًا على نقله. مر علينا العمدة يتعجلنا. أمر جدي الحريم بالتحرك إلى الباخرة أمي صوتت وهي تخرج من الباب وأختي دخلت السبيل وحطمت أزياره سابة:

- في ستين داهية .. إن شاء الله بلا عودة.

كنا قد أفرغنا محتويات الصندوق من ملابس وأغطية وكفن جدي ومع ذلك، بدا لجدي ثقيلاً. تخلص من الصندوق مبسملاً، مستعيذاً، وضع أذنه فوق غطاء الصندوق وقال في فزع:

- الصندوق كأنه مسكون.

- هيا يا جدي.

- مسكون والله يا ابني.

- أوهام يا جدي.

- ثمانون عامًا والجن يسكن بيتنا ولا نعلم .. ألهذا كان الطعام يشح عندنا ؟ ألهذا كنت أشعر بالضيق ؟

- يا جدي .. نحن في عز النهار.

- اسمع الكركبة .. هذه حركات جن محبوس.

- لا تفزعني يا جدي.

- أين المفتاح ؟

- مع أمي ..

استخدم حجرًا في تحطيم القفل متمتمًا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، صاحب البيت محمد رسول الله. بعيد يا بلاء. الله أكبر. الله أكبر.

فتح الغطاء بسرعة ثم قهقه طويلاً. ضحك جدي كما لم يضحك من قبل حتى دمعت عيناه. ورغم عبثية الموقف ومرحه، كنت على يقين بأنه حين يتمالك سيشج رأسي بعصاه ..

- أنت يا إبليس .. فعلت هذا.

- لن أرحل دون كلبي.

- وتستغفلني ..

- لا حيلة أمامي.

- سيفطس.

- يا جدي حرام .. سيموت جوعًا.

- وماذا نفعل ؟ حكم القوي ..

فك وثاق الكلب، وأطلقه، قفز من الصندوق وتمسح بي. حزنت من أجله. فشلت محاولتي في إنقاذه. مات حماسي في نقل الصندوق، قلت لجدي مثبطًا همته:

- الصندوق ثقيل يا جدي.

- يا عكروت .. كشفت نفسك.

سرنا وجدي في اتجاه الباخرة، خطواته ثقيلة جدًا. وحزنه فادح. لم أر جدي من قبل بمثل هذا الحزن ولا حتى عندما غرق أحد أعمامي في واحدة من الفيضانات العالية. ولا عندما اكتسح فيضان مبكر كل زراعاتنا، ولا عندما جاءت أنباء زواج عمي الثاني بسيدة قاهرية ولا عندما حل علينا موسم شح فيه الطعام لدرجة المجاعة. ولا في أكثر الظروف قسوة ومدعاة لليأس. كان جدي شامخًا ومتماسكًا.

لكنه الآن ينهار وهو يغادر المكان. صار حزنه بلا نظير وبدأ يدندن بأغنية سودانية بعد تحريفها:

«حبيت علشانك كيشِّي
حبيت دياري علشانك
عشقت أرض النوبة
اللي شاربه من ريحانك
ظلم السد اللي خانني
يا ريته لو كان خانك».

ثم توقف ومسح دمعتين وخبطني لائمًا:

- الله يقطعك أنت وكلبك .. نسيتني زيارة مقابر أجدادي وقراءة الفاتحة على أرواحهم قبل الرحيل .. اذهب وسألحق بكم بعد قليل.

- خذني معك.

- اذهب.

- يا جدي.

- لا تكن مناكفًا.

أشرت لكلبي أن يتبعه ويحرسه. كان يسير ببطء في اتجاه المقابر وكأن الشيخوخة قد أطبقت عليه مرة واحدة.

-١٣-

البواخر والناس تحولوا لكتلة صماء، لا أحد يغنـــي أو يبكـــي أو يضحك. لحظة فراق مهيبة للمكان. والكلاب جنت .. تجمعــت عنــد الشاطئ عدا كلبنا. حين صعدت لباخرتنا، سألتني أمي هلعة:

- أين جدك ؟

- جدي ذهب للجبانات.

- كل هذا الوقت.

- سيأتي حالاً .. لا تقلقي.

لكن الوقت مر حتى وصلنا للضحى وجدي لا أثــر لـــه. أمـــي صوتت. تجمع الناس حولها: مالك يا «آشة همّد» ؟

- حاج «محمد مافي».

والعمدة يتساءل في غضب:

- أين الحاج «محمد» ؟

- أمسكت ذيل جلبابي في أســناني وركضــت أقطــع شـــارع «العلياب» الرئيسي كالبرق، وجدته هناك أمام دارنا، فـــوق المصـــطبة

يتوسد يده. وكلبنا يقعي حارسًا. دنوت منه، حسبته مات. وجدت وجهه مبتلاً بالدموع. أكان يبكي نائمًا ؟ أم نام باكيًا ؟

- جدي .. جدي «هُوىْ».

تنبه مستغفرًا. نهرني.

- ماذا تفعل هنا ؟

- وأنت ؟

- لا شان لكم بي.

- الباخرة سترحل دوننا يا جدي.

- هيا، أسرع .. الحق بها.

- يا جدي لا وقت للمزاح.

- لا أمزح.

- يا جدي.

- اركض.

أشده .. يقاوم، أشده .. يغضب، أشده .. يضربني برفق.

- الذئاب يا جدي !

- ستحرسني الكلاب.

- ستجوع وتتوحش وتأكلك.

- معي الله.

بكيت، لطمت، هدأني، احتضنني، قال بصوت حزين يشبه البكاء: ليس الأمر سهلاً كما تظنون. أبدًا ليس سهلاً، كما تظنون. أبدًا ليس سهلاً، إنه كخلع الضرس، وبالذات ضرس العقل. أنتم أخذتم

المسألة ببساطة ويسر، أما نحن الشيوخ، أما أنـــا، فالمســـألة مختلفـــة، انظر لهذا البيت، أجمل وأوسع بيوت «كشّي» فحـــين ابتلعـــت ميـــاه الخزان بيوتنا القديمة وصرفوا لنا التعويضات هاجر بعض الرجال إلى الشمال وبددوا فلوسهم في السُكّر والنساء وأفلسوا وضـــاعوا. العقـــلاء هاجروا إلى «توشكى» و«عنيبة» و«إسنا» و«أدفوا». اشتروا أرضًـــا وسكنوا هناك. والأصلاء اختاروا البقاء هنا، صعدنا للجبـــل. اخترنـــا وقررنا البقاء حيث نحن في نفس أماكن الأسلاف العظام. ولم أبخـــل، أحضرت البناءين من «أسوان».. انظر لهذه القباب.. شيدها أشهر بناء في «حلفا» بطريقة لا تؤثر فيها الأمطار. أبدًا لم أفكـــر فـــي الرحيـــل شمالاً ولا جنوبًا، جلبت الطمي من أسفل على مدار ســـنوات وبنيـــت مزرعة في حضن الجبل. «كشّي» يا ابني عندي أجمل وأحسن مكـــان في الدنيا. هنا كانت جدتك تغزل. هنا ولدوك. هنـــا أقمنـــا الأعـــراس وتقبلنا العزاء. وفوق هذه المصطبة كنا نتسامر ونحلـــم .. لا .. لا .. لن أغادر. هذا مستحيل. سعل جدي، أصابته نوبة بكاء ودندن:

«حبيت عشانك كشّي .. حبيت دياري عشانك»

مسحت دموعه بطرف جلبابي، احتضنته. قبلتـــه بقـــوة وحنـــان ونسيت مهمتي التي ستحدد مستقبلي. لم يبق أمامي سوى جدي..

- سأبقى معك .. ونغرق معًا.
- لن نغرق يا ولدي.
- يا جدي .. مياه السد ستبتلع حتى الجبال.
- يضحكون عليكم.

- السد يا جدي .. عالٍ جدًا جدًا.
- أهي أعلى من جبالنا.
- يا جدي .. المسألة محسوبة هندسيًا.
- كلام مدارس.

سمعت صراخ أمي وقريباتي، أحاط بنا عشرات الرجال بينهم العمدة الذي زعق:

- أفزعتنا يا حاج .. قم وكفاك دلع.

صاح جدي بإصرار:

- ارحلوا يا ناس ودعوني لشأني.

رد العمدة ساخرًا:

- نرحل .. أنت الآن عهدة في يدي مثل خيل الحكومة.
- الله يسامحك.

وقف العمدة خطيبًا:

- اسمعوا يا ناس .. كل من ورد اسمه في الكشوف لابد أن يصل حيًا إلى هناك.

جلست أمي بجوار جدي .. قالت جادة:

- سأبقى معك.

وأختي أضافت:

- وأنا أيضًا.

قلت:

- لن نرحل دونك يا جدي.

كيف أقنع جدي بأننا لو بقينا .. سنغرق جميعًا وأن هذا أقوى من طوفان نوح، ستتقطع عنا المؤن وسنعزل عن الدنيا .. هذا جنون مطبق. تدخل العمدة حين وجد إصرارًا من جدي وتعاونًا منا في مشروعه الانتحاري، وحسم المسألة: بأمر رئيس البلاد لن يبقى هنا مخلوق سوى الكلاب. هيا ولا تضيعوا وقتنا. وأنت يا ولد خذ امك وأختك للباخرة. التصقت بجدي.

– لن أترك جدي.

انتزعني بعنف، خبطني بعصاه. قال لجدي آمرًا:

– قم يا حاج.

– لست من حريمك لكي تأمرني.

– هذا أمر رئيس البلاد.

– ولست من رقيق رئيسك .. سأبقى في بلدي.

– لآخر مرة .. تحرك يا حاج.

– لا تحاول يا عمدة.

– لا ترغمني على استعمال القوة.

– هل ستضربني بالرصاص أم ستستدعي الهجانة ؟

– لي وسائلي.

– أرني هذه الوسائل ؟

أشار العمدة لمرافقيه. هجموا على جدي. قيدوا يديه. حملوه وأسرعوا به. وهو يقاوم. يفلفص. يرفس. يعض. يسب. كانوا عصابة وأقوياء. عند الشاطئ قاوم بضراوة حتى فكوا وثاقه وأطلقوه.. لكنهم أحاطوا به من كل جانب. سبهم:

- يا أولاد الزنى. آخر الزمن تعاملوني كالخروف.

نفض ملابسه، وقف في شموخ، نظر للخلف بحسرة وللكلاب بإشفاق وللنهر بوله وشوق، خلع عمامته وجلبابه. تقدم للنهر بوله وشوق مغنيًا:

«نيل .. يا نيلنا .. كشّي يا بلدنا».

حاولوا الحيلولة دونه والنهر. قال بإصرار:

- هيا نودع النهر يا رجال قبل الرحيل .. أستطيع الوصول إلى السد سابحًا.

النهر هذه الأيام في أنسب حالاته للسباحة. قفز جدي للماء متعممًا جلبابه. سبح في رشاقة وشباب ومهارة التماسيح، يضرب الماء بقوة ويتوغل .. يتوغل حتى وصل إلى منتصف المسافة بين «مالتي» و«تنجار» ثم توقف. العمدة شك في نواياه. أطلق في الهواء مقذوفًا للتحذير. لكن إلى أين سيذهب ؟ أيعبر للبر الغربي ويهيم هناك أم ماذا؟ بعض المسنين حرضوه من الشاطئ نكاية في العمدة وحكومته:

- أنجوجر** يا حاج إلى الجنوب.

ووجد المسنون تعضيدًا من المسنات .. فهتفن:

- أنجوجر يا الله السلامة.

وبدت اللحظة حاسمة في مهمتي، جمعت الشباب الذين في سني وهتفنا بصوت زاعق قوي:

- كلّومنجر* إلى الشمال.

---

* انجوجر: للجنوب.

** كلّمنجر: للشمال.

ووجدت مساعدة من أختي والبنات وحتى العمدة في مؤازرتنا.

- كلومنجر.
- كلومنجر.
- كلومنجر.

كان صوت أختي قويًا واضحًا. جدي ربما فكر بعمق واتخذ قراره بكامل إرادته، فقد بدأ يسبح في اتجاه الشمال. حيته الباخرة بصفارة وتحركت لتحاذيه أو تلتقطه. وفجأة اشتعل الجحيم داخل الباخرة، امرأة هيجت الذكريات أشجانها .. فصرخت:

- واجوري[1] .. واجوري.

وشاركتها الأخريات:

- يا إندي[2].
- يا أمباب[3].
- يا آنو[4].

كلهن تجمعن في مؤخرة الباخرة يودعن أمواتهن في المقابر، الأمهات والآباء والأجداد. كان للموتى عندنا تقدير خاص. سيتركونهم لمياه السد وهو أمر بالغ الأذى لنفوس هؤلاء الناس. تحولت

---

(١) واجوري: يا خسارة.

(٢) اندي: أمي.

(٢) أمباب: أبي.

(٤) آنو: جدي.

الصرخات الفردية إلى نواح جماعي. جمعت الأولاد ورحت بهم للطرف الآخر من الباخرة ورأيت أن أقوم بعمل ما .. شيء ما.

فأنشدت والأولاد معي:

«بلادي .. يا بلادي .. بلادي

كشِّي يا أم البلاد

مصر غايتي والمراد».

قال لي العمدة مربتًا على ظهري بامتنان:

- أنت تقوم بعمل رائع.

لم أقل له إنني في «منظمة الشباب».. تركته على «عماه» وواصلنا الإنشاد حتى توقفت النساء عن النواح.

كان جدي مازال يضرب الماء بقوة في اتجاه الشمال حتى حاذته الباخرة وضبطت سرعتها على سرعة جدي حتى حار الناس: هل جدي أسرع أم الباخرة. وعلى الشاطئ، على امتداد المسافة كانت الكلاب تجري نابحة وقد أحست بالخديعة، تجاوزت الأودية والجبال ووصلت للقرية التالية واشتبكت مع كلابها.

وجدي ما زال قويًا ومستمرًا، كان منظره جميلاً وهو يهز رأسه يمينًا وشمالاً ويضرب الماء بقوة، ازدحم الحاجز بالناس يتفرجون منبهرين. كبَّرَ رجل:

- الله أكبر .. الله أكبر.

فزغردت إحدى قريباتي. تلاشت كشِّي ببيوتها وجبالها وكلابها بعدنا الآن عن المكان وجدي ما يزال...

- حتى الشلال يا حاج.

- قوي مثل أبيه.

- عنيد مثل آل «عوض موسى».

- تمساح نوبي.

- أبو التماسيح.

تجاوزنا «ماريا» و«أبو هور» و«امبركاب» وجدي مستمر في نضاله وكأنه صمم فعلاً على الوصول إلى السد سابحًا. لولا ظهور جسم عائم لا يبين منه سوى الظهر. صرخ أحد خبراء كائنات النهر:

- تمساح .. تمساح.

صرخت أمي أيضًا فأفزعت الركاب. ألقوا إليه بطوق النجاة والتقطوه في نفس لحظة وصول الجسم العائم للبقعة التي كان فيها جدي.

-١٤-

لبثت أراقب الجسم العائم وحدي، لا يغطس أو يعوم، مجرد كتلة سوداء متحركة وليس هو بجزع نخلة، حين التصق الجسم بالباخرة ودققت فيه النظر اكتشفت إنها جثة فوقها قميص مشجر، عرفته وكتمت الخبر عن العمدة حتى لا يبول على نفسه. وطوال أشهر بعد ذلك لم أبح بالسر لأحد رغم أن السلطات أجرت تحريات واسعة عن سر اختفاء «كتبة تيما كوداي».

-١٥-

حملتهم الحافلات من الشلال وأفرغتهم على بعد شاسع من المكان القديم، فوق أرض قاحلة جرداء لا تصلح للحياة ولذا ظلت متروكة رغم ضيق الأماكن في قرى الصعيد؛ عقاربها سوداء متوحشة، بعوضها مصاص للدماء، ومع ذلك، فالجبال متشابهة والمناخ متقارب، لكن العقارب لا تكف عن الزحف، فملأت الأحواش والغرف وتسلقت الأسرة والحوائط. حيث تخطو لا تجد سواها وأمي تظن الجبل مسكونًا بالجن وتقمصت العقارب فتبسمل وهي تسحقها بالمركوب، ومنذ اليوم الأول لوصولنا وضعنا صورة «جمال عبد الناصر» على أبواب البيوت وكلما مات طفل من لدغ العقارب نزع أهله صورة الرئيس حتى اختفت معظم الصور بعدد الأطفال الذين ماتوا. لكن الأحوال في مجملها .. كانت طيبة، فمعونة «الشئون» صُرفت للمسنين ومن عائل لهم. وأختي «سعيدة»، تسمع أغاني الشمال وترددها. ليس لديها متاعب؛ الحنفية العمومية على بعد أمتار والخبز يأتي جاهزًا من الأفران وأبي زارنا وأهدى لأختي راديو بطارية. وأنا أنط في القطار

وأصل لأسرتي بعد ساعة و«أمين الشباب» عند وعده لي. أما جدي .. صار مشكلة، أكبر مشكلة. من اللحظات الأولى وهو في حالة ذهـول ورفض للمكان. قام بجولة تفقدية وعاد ثائرًا:

– أين النهر .. لقد نشلوا نهرنا، سأشكوهم لـ«جمال»؛ كيف أكون نوبيًا بلا نهر ؟!

وامتد سخطه فشمل المكان كله بجباله وسهوله وطقسه وقطاره:

– ما هذا .. يأتون بنا من بلادنا ويلقون بنا تحت هذه الجبال المسكونة بالجن. وما هذه الأسقف الأسمنتية .. بيوت بلا قباب ليست بيوتًا نوبية وماء الصنابير ماسخ .. أين منه ماء النيل الصابح الحلو ؟ وهذا الخبز ألوكه كاللبان ولا ينزل من حلقي فأين عيش «الدوكة»*؟.

جدي طوال الوقت يحك ظهره بعصا أو في الحائط. أمي تجهز له الحمام حتى لا يصاب بالجرب لكنه يأبى لأن الطشت للنساء والأطفال والنهر للرجال. لكن أين النهر؟ ذات صباح، حمل جدي غياره وعصاه وخرج باحثًا عن النهر. عاد في المساء مرهقًا حزينًا: النهر هنا، ليس كما عندنا. هنا ضيق عميق وعكر وملوث، هؤلاء القوم يجهلون قيمة النهر، يلوثونه بالحيوانات النافقة والمجارير وروث البهائم وحتى بالقمامة. النهر هنا مهان. يا ربي .. كيف يفعلون هذا بنعمتك ؟ جدي هدأ قليلاً بعد اكتشافه طريق الوصول إلى النهر .. كلما ضاق به الحال يذهب ليتأمل أو يسبح رغم بعد المسافة وامتدت

---

* الدوكة: خبز يصنع على صاج من الصلب.

جولاته لتشمل قوى الصعيد المجاورة، رغم التعليمات المشددة بعدم الاختلاط لحين استقرار الأمور. خالف الأوامر وزار نجع «فطيرة» وعاد بانطباع مبشر: أهل نجع «فطيرة يا جماعة مثلنا تمامًا؛ دينهم الإسلام وتقاليدنا وعاداتنا واحدة، أحسست وأنا بينهم بأنني بين أهلي في أي قرية نوبية. وجدنا الكبير واحد وليسوا عصابات من القتلة واللصوص كما تتصورون والفارق الوحيد بيننا هي اللغة. لكن بعض أطفالهم .. أضحكوني .. تصوروا أحد هؤلاء الصغار تتبعني وباغتني برفع جلبابي، أسرعت خلفه وأمسكت به وطلبت تبريرًا لهذا الفعل المعيب .. فقال لي خائفًا وهو يكاد يموت رعبًا أن الأطفال يقولون بأن البرابرة لهم ذيول .. فراهنتهم لكي أتأكد. والله لولا كبر سني وصغر سنه لخلعت له سروالي حتى أزيل من رأسه مثل هذه الأمور. وأثناء عودتي رآني بعض هؤلاء الأطفال ففروا هاربين.. عدا واحد، كان كسيحًا فبقى مكانه. دنوت منه وطمأنته وسألته عن سبب فرار الأطفال فقال بسذاجة وبراءة الطفل الأول: خافوا أن تأكلهم .. لا تأكلني يا عم الله يخليك.

-١٦-

كنا في عُرس ذات يوم ورأيت ذلك المراكبي الذي حمل «كتبة تيما كوداي» في رحلته النيلية، تتبعته وترصدته حتى رأيته مع غيره من صفوة المدعوين في جلسة شراب على شرف العريس، سعيت لمن دسني وسطهم، ولأنني حديث السن ولا أشرب فقد بدا وجودي بينهم مثيرًا للانتباه فأخذت أقوم بخدمتهم وكأنني من أهل العروس وأكثرت من تقديم الشراب للمراكبي حتى وصل لذروة النشوة، فأقتحمته لعلي أجد حلاً للغز: من قتل مستر «كتبة تيما كوداي»؟ كان ما يزال قادرًا على التماسك فأربكته بكئوس متتالية وحاصرته بسؤال مركز وأنا أحدق في عينيه بثبات:

- ماذا فعلت بالرجل ؟
- من الرجل ؟
- الغريب !
- غريب .. ما غريب إلاّ الشيطان.
- أنت تعرف من أعني.

حاول الانصراف عني والتواصل مع الآخـــرين، فجذبتـــه بقـــوة ناحيتي:

- لا تتهرب.

- اتهرب من ماذا وأنا لا أعرف أصل الموضوع.

- مستر «كتبة تيما كوداي».

- ماذا به ؟

- أنا الذي أسأل ؟

- قلت كل معلوماتي للشرطة.

- أي معلومات.

- كأنك محقق.

- لست كذلك.

- مخبر.

- وكأنك تجهل من أكون ؟

- أيوه يا أخي .. الخمرة ملعونة تشوش على الواحد .. أنت من قبيلتنا وحفيد شيخ مشايخ «الكنوز».

- عظيم .. وقد عرفتني الآن لا تخش ولا تخفْ وبح بما عندك.

- ليس عندي غير الذي قلته في التحقيق.

- وما هو ؟

- الرجل ركب الباخرة من «أبي سمبل» متجهًــا إلـــى «حلفـــا» لزيارة أهله.

- هذا غير صحيح.

- لماذا ؟

- لأني رأيت جثته طافية في النيل.

ارتبك المراكبي، طارت السُكرة من رأسه، شدني من يدي وخرج بي إلى الساحة وجلسنا فوق حجر ضخم وسألني خائفًا :

- تقول رأيت جثته !

- نعم.

- وهل التقطوها.

- لا أظن فتماسيح النيل نهمة للغاية وربما تحللت أو جنحت لأحد الأخوار فالمنطقة كلها خالية من السكان .. وفي كل الأحوال لم تصل إلى الشلال، لأن الشرطة مازالت تسأل عنه بين وقت وآخر.

- الله يرحمه.

- والآن ماذا حدث ؟

- أيهمك أمره ؟

- مجرد حب استطلاع.

- ويبقى الموضوع سرًا بيننا.

- أعدك.

أشعل سيجارة، قام، تمشى قليلاً وكأنه يسترجع الشريط وجلس على الأرض متكئًا على الصخرة وقال بصوت محايد وكأنه يتحدث عن شخص مجهول:

- في الواقع، خلال إبحاري مع الرجل من قريتنا وطوال الطريق كان يقول كلامًا لا أفهمه وعن قوم من الماضي السحيق، مثل

«النوب» و«كوشي» وأشياء من هذا القبيل وحين وصلنا على بلاد «الفادچا» قال جملة كانت السبب في هلاكه بعد ذلك.

– وماذا قال ؟

– قال ساخرًا: إنها بلاد المماليك الفارين والكُشَّاف الحكام.

الجملة كانت بعيدة عن ذهني ولا فكرت في إنها قد تكون إهانة لأحد من سكان المنطقة. لكن عندما وصلنا «أبو سمبل»، رافقنا مرشد سياحي اسمه على ما أذكر «حسن الكاشف». كان طويلاً، جميلاً، ودودًا فوق كل هذا يجيد الغناء النوبي .. بل إن صوته أجمل من كل الأصوات المعروفة لدينا وكان يعتز بنوبيته لدرجة التعصب. ركب معنا في جولة للبر الشرقي وحدث بينهما حوار عنيف بعد وصلة غناء شجية. ولم افهم في الواقع السبب الحقيقي للشجار .. وإنما أذكر بعض الكلمات التي تناثرت مثل الأتراك، الكُشَّاف، الأصول، الـ... وإذا بالشاب الوديع الذي كان يغني «شلوية»* منذ قليل يقوم منتفضًا ويسب «الغريب» في ثورة..

– أنت تشكك في نوبيتي يا وغد.

ثم هوى بظهر الطنبور على رأسه بقوة .. فمات .. رميناه في النيل وراح كل منا في طريقه.

---

* شلوية: أسطورة نوبية.

-١٧-

بعد أيام، تلقى جدي دعوة جماعية للغذاء مع أهل نجع «فطيـــرة» للتعارف وتوطيد أواصر الصلة. أجلسونا فوق الحُصـــر وقـــدموا لنـــا أطباق الفتة؛ عندهم مثلما عندنا .. الأطباق الكبيرة وتوزيع اللحوم فـــي الأيدي وأباريق الغسيل النحاسية وكبيرهم يقوم علـــى خـــدمتنا بنفســـه مرددًا: مرحبًا بأحفاد «عون الله بن نجم الدين»، أهـــلاً بـــالكنوز أولاد عمومتنا. القرية كلها اجتمعت للاحتفاء بنـــا، قـــدموا فنـــونهم وغنينـــا أغانينا. كانت حفلة سمر كنزية/ جعفرية. لأننا نطلق على سكان هـــذه النجوع؛ «الجعافرة» ونحن نحتسي الشاي قال لنا كبيرهم مازحًا:

- زمان ذهب أجـــدادنا إلـــيكم فنوبتـــوهم .. والآن جئـــتم إلينـــا وسنعربكم.

رد جدي:

- أنتم تلقنوننا العربي ونحن نعلمكم «الرطانة» .. فمن تعلم لغـــة قوم .. أمن مكرهم.

- لا مكر عندنا.

- ولا نحن.
- صافي يا لبن.
- حليب يا قشطة.
- الفاتحة.
- الفاتحة.

نفس الملامح. كبيرهم مثل عمدتنا وجدي يتكرر في عشرات الملامح. بعد هذه الوليمة صرنا كأننا أهل أو قبيلة تفرقت وتشتت فتاهت عن بعضها ثم تجمعت فكانت الفرحة.

-١٨-

صار جدي بعد الوليمة جوالاً .. أحيانًا بالقطار وغالبًا على حماره؛ زار نجوع الصعيد المتناثرة بعدنا؛ «دراو» و«الخطارة» و«أبو الريش» و«بمبان» بحري وقبلي و«أجليد» و«الكلح» و«سلوى» و«المنصورية» واكتشفت وجود عائلات نوبية بالكامل في بعض هذه القرى منذ التعلية الأولى لخزان «أسوان» وأكتشف أيضًا – وهذا ما أزعجه– أن هذه العائلات قد نسيت لغتها النوبية وصارت تتحدث العربية مثل أهل تلك النجوع وتوطدت العلاقات كأفضل ما تكون وأصبح جدي رسولاً للتعارف وكسر الجمود المصطنع. جاء الباعة من عندهم ينادون على بضاعتهم بلغتنا وذهب المشترون من عندنا يساومون ويقايضون. بدأنا نتكيف مع المكان وعم الهدوء والسلام. لكن الجو تعكر عندما سطت عصابة مسلحة على بيت أحد المغتربين وجردته. النكتة أن الخفير النوبي رأى سيارة اللصوص على باب البيت.. فتقدم شاهرًا بندقيته الأميرية العتيقة لكن رئيس العصابة باغته بالرشاش وهدده: تفتح خشمك ح نطُخك طخ.. لم عصايتك وأقعد اتلقح

هناك ... جلس المسكين خاريًا على نفسه من الهلع .. كانت هذه المرة الأولى التي يواجه فيها رجالاً مسلحين بأسلحة الجيش ولـيلاً .. فـي البلاد القديمة كان كل أعدائه من الذئاب والضباع.. في اليـوم التـالي سلم البندقية والنحاسة للحكومة واستقال ويقضي كل وقته جالسًا بجوار الحوائط. وتقول زوجته أنه منذ تلك الليلة المشئومة لم يعد زوجًا. الهلع أصاب النساء خوفًـا علـى رقـابهن ومصـوغاتهن فجئـنن لجـدي مستجيرات، فهو الذي فتح باب العلاقات وعليه تقـع التبعـة. جـدي رفض بشدة إبلاغ الشرطة وذهب إليهم غاضبًا وأمهلهم يومًـا واحـدًا لإعادة المسروقات وإلا سيبرق لرئيس البلاد رأسًا. هبت قرى الصعيد المجاورة بشكل سريع وفعال وطاردوا اللصوص وقايضـوهم ودفعـوا لهم الفدية واستردوا المسروقات بالكامل خلال يومين. بعد هذه الواقعـة صار جدي ذا شأن عظيم .. فهو العمدة والمـأمور والحـاكم الفعلـي لمنطقة شاسعة. وجد له دورًا وكاد يتكيف؛ لولا صيف هذا العام، كـان لفحه شديد الحرارة فأصاب الناس بالجفاف والغليان. وقال أهل الـبلاد أن صيفًا كهذا ندر حدوثه منذ قرون غابرة وقال بعضهم: الخير علـى قدوم الواردين. لا سقف يحمي ولا ظل. وجدي لا يجد لنفسه مأوى؛ لا أشجار غرست او نبتت ليستظل بها ولا أسـقف قبـاب لينـام تحـت طراوتها ولا النهر قريب حتى يتبرد. وجد نفسه وحيدًا تحـت لهيـب الشمس. بلا ملاذ ولا ملجأ. بدا المكان موحشًا مقفرًا وخرجت جيـوش العقارب لتزداد الحياة صعوبة ووحشة.

وجدي كالمجنون يقوم من مكان ملتهب لآخر أكثر التهابًا. بدأ يبكي ثم يغني:

«بلدي يا حبوب

جلابيه وتوب

وجبة وصديري

وسيف مركوب»

ثم لزم الصمت تمامًا. صمت رهيب مهيب. ولا كلمة واحدة، يرنو للجنوب بحنان ويفزع من أبواق السيارات وصفير القطارات. تدهورت حالته وأضرب عن الشراب والطعام. أختي كفت عن ترديد أغاني الشمال وبذلت مجهودًا وصنعت له عيش «الدوكة» .. فرفض.

أمي قطعت مشوارًا وأتت له بماء النهر الطازج فشمه ونحاه متأففًا. أبرقنا لأبي فجاء وأبرق لعمي فجاء أيضًا ومعه زوجته القاهرية وابنتهما الجميلة اللتان أشاعتا جوًا من المرح في هذا المناخ الكئيب. لكن جدي رفض دخول عمي عليه والذي استمر يدخن بشراهة. توتر في النهاية واقتحم غرفة جدي ووقف أمامه باكيًا:

- سامحني يا أبي.

لا فائدة. عمي قبل رأس جدي ويديه وتمرغ في حضنه باكيًا. ولا فائدة وكبار القوم يحاولون تليين قلب جدي على ابنه وجدي مستمر في عناده. عمي في نهاية الأمر لم يجد مهربًا من اتخاذ القرار الخطير!

- اسمع يا أبي .. لو كان يرضيك أن أرمي عليها يمين الطـلاق حالاً .. سأفعل وأمام هؤلاء الشهود.

جدي فكر طويلاً وهز رأسه رافضًا هذه التضحية وطلـب لقـاء أبي الذي دخل مسرعًا وانحنى على جدي محـاولاً التقـاط إشـاراته المتعبة المستعصية على التفسير أحيانًا.. أشار جدي إلى عمـي وأبـي وضم سبابتيه فقال أبي:

- نعم سنكون أخوة متحابين .. وماذا أيضًا ؟

وقام جدي بعدة إشارات غامضة عجز أبي وعمي في تفسـيرها. لكن أحد المسنين المقربين لجدي فهم المضمون وقال موجهًـا كلامـه لجدي:

- لكن هذا صعب ومستحيل يا حاج «محمد».

تساءل أبي:

- الذي سيطلبه .. سننفذه .. ماذا يريد ؟

- يريد شيئًا مثل لبن العصفور.

- وما هو ؟

- يقول إذا مت ادفنوني هناك.

- أين هناك.

- في «كشّي» القديمة.

لعنة الصمت لحقت بأبي وعمي وكل من في البيـت لأن طلـب جدي صعب ومستحيل ولن يكون أبدًا. واستمر جدي فـي إضرابـه وجاء كبار القوم من كل البلاد لزيارته حتـى مـن نجـوع الصـعيد

المجاورة. وزاره الطبيب وفسر الحالة بتداعيات صدمة المكان وأشار بنقله إلى غرفة الانعاش بمستشفى «أسوان» المركزي. لكن جدي رفض وجاء مأمور المركز وحاول إرهابه. طلب كوب ماء وقال متصنعًا للجدية:

- اشرب أو أقتلك.

جدي نظر إليه باستخفاف وحرك إصبعه الوسطى في وجه المأمور الذي ابتسم في مودة بالعًا الإهانة:

- مقبولة منك يا حاج.

وقف المأمور على باب بيتنا وقال بتعجب:

- ما هذا .. «غاندي» في بلاد النوبة. لكنه ليس بغاندي ولا نحن إنجليز .. فماذا يريد ؟

رد عليه رئيس المباحث:

- هذا الرجل لا يعرف مسائل الإضراب عن الطعام .. بالتأكيد وراءه محرض دخيل.. سأتحرى وأمسك به.. امنحني بعض. لكن المسألة تفاقمت واتسع النطاق حتى وصل للمحافظ الذي أوفد المقدمة بقيادة مدير مديرية الشئون الاجتماعية الذي جعل من إحدى غرف بيتنا مركزًا للقيادة وأخذ يرسل الإشارات العاجلة وجاءت السيارات بأطعمة وملابس وإغاثات وتم مد مواسير المياه النقية وكابلات الكهرباء إلى بيتنا خلال يومين وزودونا بعدة مراوح أسقف وتم غرس بعض الأشجار ووقفت عربة إسعاف مجهزة بأنابيب الأوكسجين والجلوكوز. وسرت شائعة غريبة بأن الرئيس «جمال عبد الناصر»

سيأتي بنفسه لمقابلة جدي. وتأكدت الشائعة حين وصلت مقدمات من عساكر الشرطة تراصوا عند المحطة والمداخل وكان المأمور ومدير الأمن ورُتب لا حصر لها وفدت للقرية. وكان الزائر هو المحافظ تفقد بيوت القرية وأسواقها ومدرستها ثم جاء عندنا ودخل على جدي وجلس قريبًا منه وسأله بتبسط:

- مالك يا حاج ؟

- ...

- من زعلك ؟

- ...

- ماذا تطلب ؟

- ...

- ماذا ينقصك هنا ؟

- ...

- الذي تطلبه .. سينفذ فورًا..

جدي تمتم بكلمة لم تخرج من شفتيه.

- قل ولا تخف ..

جدي نطق كلمة متقطعة وصمت.

- آ.. و.. ز

- انطق .. الحكومة كلها تحت أمرك.

- آ.. و.. ز

أقاموه بصعوبة حتى استند بالحائط وصار وجهًا لوجه أمام المحافظ الذي ربت عليه بحنان وقال له مشجعًا:

- يا جدي لا تحيرني .. اطلب حتى لبن العصفور..

- آوز «كيشِّي».

وكأن المحافظ وجد مخرجًا لهذه الأزمة. وقف وأصدر أمرًا حاسمًا لسكرتيره:

- خذ سيارتي واحضروا له «كيشًّي» من تحت الأرض حالاً:

نظر السكرتير للمحافظ والمرافقين وتساءل في حيرة:

- لكن ما هي «كيشِّي» يا جماعة ؟ نوع من الطعام النوبي ام ماذا ؟

قال المحافظ :

- أسلوا العمدة ؟

وقال العمدة موجهًا حديثه للمحافظ حتى لا يقع تحت آلاعيب رئيس المباحث :

- «كيشِّي» يا سيادة المحافظ .. هو الإسم القديم لقريتنا.

قال رئيس المباحث مؤكدًا حاسته الأمنية :

- يا سيادة المحافظ .. هذا الرجل خلفه محرض.

- رد عليه المحافظ مهونًا:

- لا تكبر الموضوع يا باشا .. مجرد تخاريف احتضار .. انقلوه إلى غرفة الإنعاش.

وهم يشربون شاي الضيافة علق المحافظ بأن الأمر كلـه راجـع لغياب الوعي السياسي الثوري عند هؤلاء الناس ووجه نقـده لأمـين الاتحاد الاشتراكي.

- أين دوركم ؟ أليس لكم وجود هنا ؟

رد أمين الشباب بحماس:

- لنا يا افندم .. وهذا أحدهم.

وأشار نحوي.

وسألني المحافظ :

- ما أمر هذا الرجل ؟

- هو جدي يا أفندم !

- وكيف يحدث هذا في أسرتك.

رد أمين الشباب :

- لقد سقط في الامتحان.

سألني رئيس المباحث :

- من حرضه في نظرك ؟

- جدي يستعصى تحريضه.

- ماذا إذن ؟

- الظروف حرضته.

وإذ بالمحافظ الذي كان معتدلاً ومتفهمًا حتى الآن يستشاط غضبًا ويقذف بالحمم والبراكين.

– ظروف .. ظروف ؟ أي ظروف تتحدثون عنها. أنتم أفضل فئة عاملتها الثورة بتدليل؛ بيوتكم من الدبش وأسقفها من الأسمنت ولديكم المياه النقية والإنارة؛ هناك مواطنون مثلكم تمامًا في قرى الوجه البحري يسكنون في بيوت من الطوب اللِّبْنْ وأسقفها من القش ولا عرفوا المياه النقية ولا الكهرباء حتى الآن وفي العاصمة نفسها ناس ينامون في الشوارع والقبور وفي مساكن الإيواء .. يا أخي فلقتونا ؟ ماذا تريديون ؟ قصور أسرة «محمد علي» .. أم ڤيلات على شاطئ الإسكندرية ؟ لو أعرف ماذا تريدون ؟!

-١٩-

عدنا من جديد لدورات (التثقيف السياسي) ووجع الرأس وبدأنا نسمع مصطلحات جديدة عن «الوحدة الوطنية» وهي غير (الوحدة) «اللي ما يغلبها غلاب» وعن (عملاء الأنظمة العربية العميلة) وهم غير (عملاء الاستعمار) و(الثورة المضادة) وهي غير (ثورة ٢٣ يوليو). وأشياء من هذا القبيل وطلبوا منا مراقبة الشبان النوبيين الذين يعملون في «السعودية» و«ليبيا» وكان هؤلاء يدخلون لتلك الدول عن طريق «السودان». وكنت أعرفهم بالاسم ولم يكن بينهم من يحترف السياسة وكان همهم الحصول على الرزق.

وقال لي «أمين المنظمة»:

- لو أرشدتنا على المحرض .. ستدخل الجامعة دون الحصول على شرط المجموع الكبير.

- أهذا ممكن ؟

- نحن نستطيع تنصيبك عمدة للقرية رغم حداثة سنك لو إردنا

ولم تكن كل هذه السخافات تعنيني في شيء. كان همي كله مركزًا

على جدي الذي تدهورت حالته. وذات يوم تشجعت زوجة عمي واقتحمت غرفة جدي ووقفت أمامه بجمالها وحيويتها :

- والجميل زعلان مني ليه بقى ؟

جدي فوجئ بها فرنا إليها باستغراب وحيرة.

- بقى بذمتك في واحدة حلوة زي في بلدكم ؟

كانت هذه أول مرة يراها جدي ولابد أنه انبهر بجمالها كما حدث لنا وشجعها صمته على التمادي في مشاكسته فنادت على ابنتها :

- بوسي جدو يا «غادة» .. والنبي فلقة قمرة.

تلقى جدي القبلة برضا وبشاشة فجلست زوجة عمي بجواره وأمسكت رأسه ووضعته على حجرها فبدا كطفل رضيع في حضن أمه، مسحت وجهه بيديها وقرأت بعض الآيات وانحنت عليه وقبلته في فمه. أخفت أمي وجهها خجلاً فهي طوال عشرتها لجدي .. لا صافحته ولا احتكت به ولا دخلت عليه سافرة الوجه. لكن هذه القاهرية المدهشة تفعل أشياء مدهشة وجريئة. طلبت كوب ماء وأدنته من فمه..

- أشرب يا بابا.

جدي حاول التملص منها .. لكنها حاصرته.

- بطل دلع. ح تشرب يعني ح تشرب.

وضعت حافة الكوب على شفتيه وأخذت تشجعه بمداعبته والمسح على صدره بيدها الأخرى ومصت شفتيه بقبلة عجيبة أخجت أمي فولت هاربة ثم وضعت كوب الماء على فمه مباشرة.

ياللا .. هوبه.

وإذ بجدي يمسك الكوب ويعب الماء عبًا وطلب المزيد .. لكنها طلبت شوربة الخضار الدافئة وأخذت تطعمه فزغردت أمي وأختي وكبر أبي فكبر خلفه كل المسنين الذين في السبيل. شرب وأكل ونام وشخر على حجر زوجة عمي .. وبعد ساعات شهق ومات.

نعم جدي مات. لا كما يموت الناس والبعير إنما كالأشجار. وخلال الأيام التي تلت موته، حاصرتني عشرات الوجوه؛ «كتبة تيما كوداي» بجباله ومزاعمه، «كنود» بصندوقه العجيب واسمه الأغرب، «رمسيس» بتماثيله البديعة، «نجم الدين» وأولاده الذين زحموا المكان، فلول المماليك وكُشَّاف الأتراك.

لكن كل هؤلاء لم يقللوا أو يرفعوا من شأن جدي، كان موجودًا بقوة ورسوخ وشموخ وهو كما عرفه المعاصرون؛ بسمرته وطيبته وسماحته، لقد أبعدوه عن الجغرافيا .. ربما. لكنه، لكنني، لكننا، نقف عند حافة التاريخ، محتفظين بتوازننا، حاملين النوبة في وجداننا. لا نتعب ولا نكل ولا نمل، وحين يشتد بنا الحنين إلى هناك نغني «أسمر اللون» وحين يضيق بنا الحال هنا ونحاصر بآلات التذويب الجهنمية، نراوغ ونهرب لنجتمع في أي شارع أو مسرح أو عُرس أو .. أو .... او، ونتنفس عن حزننا وأزمتنا برقصة «الأراجيد»، نرقص دائمًا.. «أراجيد»، «أراجيد»، «أراجيد» :

«هيلي .. هيلي .. هلاَ
هالاَ هالاً .. أيوه

حلاوة يا أيوه
حلاوني .. حلاوة
يا شربات ..
حلاوة يا شربات».



آراء نقدية

- إدريس علي يستعيد تهجير «النوبي»
  بقلم: د. صلاح فضل

- (قضية للمناقشة) النوبي
  بقلم: فريدة النقاش

إدريس على يستيعد تهجير « النوبي »(*)

بقلم: د : صلاح فضل

لفن الرواية طرائقه الماكرة، ومواعيده المدهشة، في بعث الحياة التي يظن الناس أنها قد اندثرت وانطفأ وهجها في الذاكرة. حتى نجدهم يتساءلون: لماذا لم تسجل هذه الأحداث الكبرى أو تلك في الأدب، وقد مضى على وقوعها عشرات السنين ؟ بينما تكون موادها في الحقيقة، آخذة في الاختمار والنضج في باطن العقل الإبداعي لواحد من أبناء الجيل الذي شهدها أو أكثر، وربما ممن جاء بعدهم، في انتظار لحظة الانبثاق التي لا يستطيع أحد التكهن بموعدها.

وقد صدرت خلال الفترة الأخيرة روايتان عن دراما الهجرة النوبية، بعد قرابة أربعين عاما من وقوعها في مطلع الستينيات خلال بناء السد العالي، وكأنهما على موعد مع العيد الذهبي لثورة يوليو، يستحضران روحها وشجونها العميقة كما تجسدها هذه الهجرة القسرية العنيفة. إحداهما للقصاص النوبي الأصيل «يحيي مختار» بعنوان: «جبال الكحل» وهو مأخوذ من مثل نوبي قديم يقول:

(*) الأهرام ٢٩ يوليو ٢٠٠٢ (صفحة مقالات)

«جبال الكحل تفنيها المراود» مشيرا إلى فعل الزمن في النـــاس، والرواية الأخرى. وهو موضوعنا اليوم. بعنــوان «النــوبي» لزميلــه الكاتب الكبير إدريس علي.

وهو مبدع من بلاد النوبة أيضا، في الثانية والستين من عمــره، عصامي عنيد، ثقف نفسه بضراوة، ومارس الكتابــة القصصــية منــذ مطلع شبابه، فنشر أول مجموعة قصصية بعنوان «المبعــدون» عــام ١٩٨٥م. واتبعها بمجموعة «واحد ضد الجميع» بعد عامين، ثم نشــر أولى رواياته «دنقلة» عام ١٩٩٣ فترجمت إلى الإنجليزيــة، وأصــدر مجموعة أخرى قبل أن ينشر روايته الثانية الفــذة «انفجــار مجمــة»، وهذه روايته الثالثة فحسب، من هنا فهو كاتب مقل في إنتاجــه، لكنــه يحفر عالمه من جرانيت الجنوب ليقدم عبق المكان وأسطورة الشــعب بدأب ومثابرة كبيرة.

يروي إدريس على روايته «النوبي» بضمير المــتكلم، ليســتبطن عوالم شخصياته من الداخل، ويقدم رؤيته من منظور جيل أبناء الثورة الذي انشقوا عن أهلهم، وتعاطفوا بقوة مع التحولات الجديدة التي كانت تحدث لهم، وتطوعوا «لتلقي جرعة مكثفة من المحاضرات عن الوطن والوطنية والمشاريع القومية الكبرى «في منظمة الشباب» ممــا جعــل بطلنا يحصل على درع الدورة التدريبية، بسبب إجابته النموذجية عــن سؤال غامض طرحه أمين الشباب على المشاركين في الدورة وهو:-

- من أنتم ؟ فقال بثقة وتمكن :

- نحن - يا افندم- منبعنا النوبة، ومصبنا مصر، وفي المسافة بين المنبع والمصب، علاقات، حسن جوار، مصاهرات، قرابات، وليس هناك ما نتنازع عليه، فكلنا نشرب من ماء النيل، الغني منا والفقير ثم تملكه شيطان العبث فأضاف مرحا لتطليف الجو:-

- في الواقع يا افندم، مصر والنوبة «هتة واحد» ضحكت القاعة كلها حتى أمين الشباب، فالجملة الأخيرة كان بالضرورة تستدعي نكتة قديمة أيام الاستفتاء على استقلال السودان، فقد تحمس أحد السودانيين للوحدة وقاد مظاهرة في القاهرة فحملوه وأخذ يهتف «مصر والسودان هته واحد» ولما أنزلوه واكتشف أن أحد المتظاهرين قد نشله فأخذ يصرخ «مصر والسودان ستين هتة !».

قال أمين الشباب معلقا:-

- ظريف والله: «لكننا لن ننشلكم» وكافاه بوعد بدخول كلية الهندسة بعد أن يحصل على دبلو الصنايع، وقدمه للمحافظ الذي أنعم عليه بمنحة شهرية طوال فترة الدراسة.

هكذا بخطوط وجيزة مكثفة يرسم لنا إدريس على ملامح شخصيته المحورية وهو يقدم كونا مصغرا يحكي قوانين الكون الأكبر ويستحضر مذاق الفترة التاريخية خلال المد الثوري بما كان يغلي فيها من إرادة جبارة للتغيير من ناحية، ولتطويع الحياة وتجنيد الشباب، وكسر نمط المسارات الروتينية حتى شراء الانصار بالمال والوعود من جانب آخر. ولأن الأدب نقد للحياة في صميمها فإن الصورة لا تكتمل سوى بالمشهد التالي في الرواية، عندما يذهبون جميعا لاستقبال

أهل «دابود». وهي أول قرية نوبية يتم تهجيرها للموطن الصحراوي الجديد بعيدا عن مجرى النيل، حيث أخذت الإذاعة الداخلية تبث أغنية يا جمال يا حبيب الملايين، وقاموا برشق أعلام الوطن وصورة الرئيس في الأماكن البارزة، وأخذوا في توزيع الحلوى والمرطبات على القادمين. لكن جهامة الواقع غطت على كل ترحيب. «فالبيوت ليست كبيوتنا، بل هي كئيبة منفره، ومواسير المياه لم تمتد بعد أو حتى الإنارة. حنفية عمومية واحدة مقتصرة على الميدان الرئيسي.. القوم يدخلون البيوت ويخرجون بسرعة، يقفون أمام الأبواب في حيرة وتعاسة بعضهم كان يبكي وتفكهه أحد المسنين:-

- لقد نشلونا.

ولابد أنني ضحكت برغم مأساوية الموقف، فسبني وسب أهلي، ولكنهم جميعا دون استثناء لم يكن بوسعهم إبداء أقل مظاهر الاحتجاج. كانت الكلمة في أبسط صورها تؤدي للهلاك. وكلما سألهم الكبار عن الأحوال كانوا يرددون: «الحمد لله مبسوطين. ربنا يخلي جمال «كان قهر الروح وكبت المعارضة هو الثمن الفادح لهذا التحول القسري مما جعل حجم التضحية أكبر من أن يتحمله هؤلاء المساكين في سبيل مشروع لاشك في حيويته العظمى للوادي الخصيب في كل العصور.

تقنيات التضاد والدهشة:

لأن إدريس علي فنان موهوب فهو قادر على أن يبرز شخصيات روايته ومواقفهم عبر تقنيات روائية تعتمد على حوارية

ألم×فارقة والتضاد من ناحية، وغرابة الغموض والتسويق من ناحية أخرى.

فإذا كان شباب أهل النوبة يتحمسون للهجرة، ويصدقون وعودها الوردية، وهم مستعدون للتضحية من أجل المستقبل المأمول، فإن الشيوخ بخبراتهم المتراكمة وارتباطاتهم الحميمة بالأرض وتراث الأسلاف أقل تفاؤلا وأكثر توجسا ومرارة، فهم يجفلون من كل تغيير يمس نمط حياتهم ويضمرون حنقا مكظوما على ممثلي السلطة. وقد لجأ أحدهم – الشيخ فضل الله– إلى الهروب من الفوج الأول، ولم يعثر له على أثر، مما أزعج المسئولين وراحوا ينبشون عنه الأرض والمركب والقرية دون جدوى، وظل طيفه يخايل الشباب والشيوخ مذكرا أياهم بمأساة اقتلاع الجذور وتغريب الفروع. ولكي يقدم الراوي رؤيته للنسيج الملتئم – الظاهر– لأهل النوبة، وتوزعهم في الحقيقة على اصقاع وقبائل مختلفة، وضع في طريقه شخصية غريبة، لرجل يحتفي به الكبار، بالرغم من بشرته السوداء، وجواز سفره الإنجليزي والغليون الأنيق المتدلي.

من فمه. وجلعه يصطدم به في حوار ساخر وساخن، كي يكشف عن فصائل نوبية، تسكن داخل حدود السودان، قامت بصد موجات الغزو الفرعوني والعربي والمملوكي عند دنقلة. مضيفا ملاحظات طريفة، مثل قوله: «لم يكن لقومي فضل كبير في رد الزحف العربي، لأن الجنود العرب لم يجدو لدينا ما يحفزهم على مواصلة الزحف، لا فئ ولا سبايا جميلات».

ثم يقدم نفسه باعتباره من أشرافهم. وكيف أنه تعرض لمحاولات اغتيال شديدة عقب زيارته لموطنه، ووقوع بعض الاضطرابات والاشتباكات بين القبائل والحكومة السودانية فيها. مما جعلهم يعتقلونه. ولولا جهود زوجته المصرية – وهي قبطية كانت تلميذته في إنجلترا- قامت بدور «فتحية» مع «نكروما».. فقادت حملة دولية للإفراج عنه. اتصلت بالبابا وملكة إنجلترا وجمعيات حقوق الإنسان. ولما أخفقت لجأت للعظيم عبد الناصر – وهو رجل قوي وزعيم حركة التحرير وله نفوذ جبار. تدخل بثقله – فانقذني، وأنا مدين له برقبتي».

الطريف أن هذا الغريب يعود مع الراوي إلى قريته ويتخذه دليله، للبحث عن المعمر المنفرد «كنود» الذي كان يقطن بيتنا متهدما فوق جبل «العلياب». وبناء على نصيحة الرحالة الإنجليزي «مستر نلسون» – الذي كان كنود يعمل في شبابه طاهيا ودليلا له – يحضر معه قدرا من التبغ وزجاجات من الشراب» حتى يستعيد ذاكرته ويقص عليه أسرار القبائل الأصلية. يلفت نظره صندوق زوجته العجيب، «فيقعى بجواره» ويستخدم بطارية وعدسة مكبرة لقراءة النقوش والرسومات تابعته حين سلط الضوء على صورة امرأة حسناء، تحمل طفلا أجمل منها .. إنها ليست مجرد صورة. إنما حقيقة تنقصها الروح لتنطق وترمش بعيونها وتتحدث معنا .. الألوان زاهية، والعيون ساحرة. من تكونين يا ربي» ولم يلبثوا أن تبينوا أنها صورة العذراء مريم ومع أن العمدة يسأل المعمر العجوز بخبث:-

لكن ما الأمر يا كنود؟ أكنت تصلي معنا الجمعة وأنت نصراني؟!

غير أن الراوي يعلق بفطنة «قومنا لا تطرح بينهم هذه الأسـئلة. المسافات بين العقائد غير محسوسة عندنا. لا يحفرون وراء المسـائل، بدليل أن العمدة المتدين الوقور يجلس الآن بين اثنين يتعاطيان المنكـر أمامه. إنهم يعمدون أطفالهم في النهر كعادة متوارثـة. ولـم يسـألوا أنفسهم يوما: أهي عادة فرعونية أم نوبية أو قبطية. «وضـبة» البـاب على هيئة صليب منحوت، وأمي تقول مستجيرة «أنـا فـي عـرض مريم»، مع أنها لا تعرف من تكون مريم هذه، وتظنها مـن آل البيـت مثل السيدة زينب وحتى لو عرفت فلن تتغير مشاعرها.

هذا هو النسيج المصري الملتئم بصدق في النوبة، مثل الصـعيد والدلتا. والولع بالأسرار لن يفضي إلى تشقيقه أو نقض تجانسه، لكـن تظل تقنيات الشخوص المتضادة والرموز الغامضة من أكثر عناصـر السرد الروائي تحفيزًا لنشاط القارئ وإنعاشا لمخيلته وإثـارة لقدرتـه على الاستمتاع الجمالي.

اندثار العالم القديم:

الرواية على صغرها مكثفة وبليغة .. فهي تضفر عالمها بحيوية عجيبة .. فهي تضفر عالمها بحيوية عجيبة. إذ بينما تقدم مرثية رحيل أهل القرية في «أصعب يوم» حين وصلت بواخر الرحيـل وأطلقـت صفاراتها بكى الرجال أول بكاء جماعي لهم «نجد أنها تقدم مجموعـة من الرموز التي تصور اختفاء هذا العالم، فصـندوق المعمـر كنـود «يتحطم خلال نقله إلى المركب» يهوى لأسفل محدثا دويا هائلا تتناثر

محتوياته، وإذا بها لا شيء.. لا ذهب ولا كنوز سليمان كما كان يظن الناس، مجرد سيوف قديمة صدئة وملابس مهلهلة وتماثيل صغيرة لمساخيط لا قيمة لها «والغريب الذي كان مهووسا بفض أسرارها وعرض ألف جنيه كاملة لشرائها انتهى أمره بدوره بشكل مأساوي» حيث لمح الراوي جثته طافية على صفحة ماء النيل، وعندما عثر على المراكبي الذي كان يقله تحايل عليه حتى أسكره بالشراب وضغط عليه كي يعترف بظروف مصرعه، فتبين أنه لقى حتفه في نزاع تافه مع أحد المرشدين السياحيين النوبيين أيضا، وهما يتجادلان في أصل القبائل ومن هو الأعرق منهما.

لكن النموذج المحوري الذي يفرض صورته ويبسط ظله على امتداد الرواية كلها هو الجد الذي استعصى في بداية الأمر على الرحيل، فأحاط به العمدة واعتصمت معه الأسرة مهددين بالبقاء الانتحاري معه، فتركهم ونزل إلى النيل «يضرب الماءبقوة في اتجاه الشمال حتى حاذته الباخرة المقلة للمهاجرين وضبطت سرعتها على حركته .. كان منظره جميلا وهو يهز رأسه يمينا وشمالا ويسابق تماسيح النيل بينما أخذ الراوي ورفاقه ينشدون في حب موطنهم أنشودة حرفوها لتقول:-

«بلادي .. بلادي .. كش» (وهو اسم القرية) يا أم البلاد .. لك حبي وفؤادي.. مصر غايتي والمراد» مشهد رائع يمكن بالفعل أن يظل محفورا في الذاكرة أربعين عاما. حيث يضفي على عملية التذكر والاستحضار كل ما تزخر به من شجن. وتضمره من عذاب، وتبعثه

من مواجد الماضي بلحظاته المشحونة، وشخوصه المتضادة وحيويته الثيرة.

لكن الدلالة الأخيرة للرواية يصنعها مشهد آخر لهذا الجد ذاته، بعد أن استقر في القرية الجديدة، وعقد علاقات ودية مع قرى الصغيد المحيطة بها، حتى أدركته نوبة اكتئاب عارمة في أحد الأصياف اللاهية، فأخذ يتخبط من مكان لآخر في بيئة قاسية لم تنبت بها شجرة تخفف لهب الحر، أصابته حالة يأس مريع فاضرب عن الحياة والطعام والشراب. جاءوا له بأولاده، ابنه الذي كان قد غضب عليه لتزوجه من قاهرية، انكبت زوجة الابن الحسناء عليه تقبله وتسترحمه كي يشفق على نفسه، ينتعش لحظة ويقبل جرعة ماء وبعض حساء قبل أن يلفظ نفسه الأخير، يترك قومه، وحفيده خصوصاً وهم «يقفون» عند حافة التاريخ، يحتفظون بتوازنهم، حاملين النوبة في وجدانهم. وحين يشتد بهم الحنين يغنون «أسمر اللون» وحين يضيق بهم الحال ويحاصرون بآلات التنويب الجهنمية في المجتمع الجديد براوغون ويهربون، ويلجأون لرقصة «الأراجيد» التي ترمز لفنهم النوبي الأصيل».

هكذا يستنقذ إدريس على عالم النوبة المتفرد، ويستعيد ملحمة تهجيره، بنفس روائي عميق، وحس تاريخي يبعث نسخ الحياة في الماضي الماثل في قلب الحاضر.

قضية للمناقشة « النوبي »(*)
بقلم: فريدة النقاش

إدريس علي كاتب من النوبة، قدم للمكتبة العربية ثلاث مجموعات قصصية وثلاث روايات نهلت جميعًا من تجربة النوبيين، سواء في العيش الآمن البسيط في بيئتهم الأولى، قبل أن يغرق السد قراهم، أو في تجربة الهجرة إلى النوبة الجديدة، أو إلى الشمال كما يسمون الوجه البحري. والنوبي هي روايته الجديدة التي يسير فيها على نفس الطريق، الذي مهد له من قبل كل من محمود شندي وزكي مراد كشاعرين، ومحمد حمام موسيقياً ومغنياً يحمل كل لوعة الهجرة والحنين ومحمد منير مغنياً فريدًا وصوتاً لأهله وللإنسانية ومحمد خليل قاسم بقصصه القصيرة، وروايته الفذة الفريدة في الأدب العربي المعاصر، وهي «الشمندورة» و«يحيي مختار، قاصًا، وحسن عثمان مثالاً وفناناً تشكيليا و«خليل كلفت» باحثاً وعشرات غير هؤلاء، ممن سكنهم هم جمالي مؤرق، يتمثل في الكشف عن أعماق خصوصية هاربة يحاولون الإمساك بمفرادتها، وإعادة تشكيلها من مادة الحنين

(*) الأهالي ٢٤ يوليو ٢٠٠٢ (صفحة ثقافة وفنون)

إلى البلاد الأصلية. تلك البلاد غرقت مع السد، وحيث ينشأ التوتر الدرامي في عالمهم من هذه المفارقة: ألا وهي أن الحداثة التي يمثلها مشروع عملاق مثل مشروع السد العالي، حملت لهم الخراب وأغرقت قراهم التي ظلوا يحملونها في الذاكرة، وفي طرق العيش، ويعبرون عنها في إبداعهم حاملين إليه روح التسامح، والحضارة، والفرادة الخالية من الاستعلاء، لكن المعتزة بنفسها وبإسهامها الخاص في الحضارة المصرية. والمفارقة الثانية هي أنه رغم الألم الذي يسببه الغرق والهجرة، فقد كان شبابهم «منبهرين فكرة الانتقال» كما يقول الراوي - البطل الطالب في المدارس المتوسطة، وعضو منظمة الشباب في قريته «كيش» والمطلوب منه أن ينشر الوعي بين أهالي القرية بأهمية مشروع السد العالي، وبمباهج الانتقال الذي يمكن أن نراه فعلاً رمزياً للانتقال إلى الحداثة، ومن الحالة شبه الفطرية إلى التمدن.

وكان الراوي من أبرز المتطوعين وعياً وحماساً.. وقد أطلقت عليه أمه اسم «إبليس» بسبب شقاوته، ولكنه الاسم الذي سيكون له دلالة فيما بعد، لأنه هو الذي سيكتشف عبر الولع بالمعرفة قصة الباحث الغريب، الذي جاء إلى منطقتهم للالتقاء بعجوز معمر له حكاياته ومقتنياته الغريبة وسوف يكون دخول هذا الغريب إلى القصة، أداة لوعي جديد يخلخل كل ما أسموه بالثوابت حول أصولهم العرقية، ومن عرب وأتراك ومماليك وفراعنة وغيرهم. هز الباحث قناعات البطل وزلزل الأرض من تحته، لأنه شك تماماً أن يكون التاريخ

المستقر الذي يعرفه ناقصاً، ومشوهاً، ومسكوتاً عنه. ويموت الغريب ويلقى الذين قتلوه بجثته في النيل، لأنهم يعجزون عن استيعاب المعرفة الجديدة.. ومعرفتهم هم مستمدة من القرآن الكريم «القرآن الذي نتلوه لم يذكر لنا عن قوم هذا الرجل وملوكهم.. طهراقا.. وبعنخي.. وكاتاشا.. مع أنه ذكر ذو القرنين وأبرهة .. و..».

كذلك هم يعتقدون «أن النيل يأتي منالسماء كهدية إلهية، ونحن نجود به على أهل الشمال».

ويقول الراوي البطل: «جدي والنيل والقرآن شيء واحد..» وسوف يكون النيل بعد ذلك ملاذ الجد العائش في عالم الأوهام، حيث يسعى لقطعه سابحاً، عائداً إلى قريته، هارباً من باخرة الرحيل.. ويكون ضرابه عن الطعام بعد ذلك في البيت القبيح، الذي أسكنته فيه الحكومة، بديلاً عن بيته النوبي الواسع، ذي القباب، هو السبب في تحرك السلطات لمد القرية الجديدة بالمياه والكهرباء.. تلك السلطات التي لم تشاور أهالي القرى حول شكل بيوتهم الجديدة، أو طريقة حياتهم كلها. وقد كان حسن فتحي سيجعلهم يبنون بيوتهم بأنفسهم، مترجماً رؤيته الجمالية للبيت كسكن.

في الرواية، كما في الأدب النوبي كله، على تفاوت مستوياته، هناك حالة تركيب من الفولكلور وتصعيد له، ولكن يخيل لي أن أسطورة الحنين «النوبي» قد استنفدت نفسها، وأغراضها وانتهت. وأن كل ما سوف يكتب بعد ذلك سيكون تكراراً، وثمة حاجة لقراءة جمالية جديدة لحياة النوبيين في الشمال، كما يقولون، ولدراما ذوياتهم فيه خاصة أجيالهم الجديدة التي تتطلع للمستقبل لا للماضي.

يعيب هذه الرواية الجميلة، أن بها لغة خطابية تقريرية، ربما يبررها الطابع التوثيقي التسجيلي لبعض المقاطع. كذلك تتحدث كل الشخصيات بلغة الكاتب ذاتها دون مراعاة لفروق الثقافة، المستويات الاجتماعية، ويحدث تحول غير منطقي في موقف الأخت الناقمة على الحياة في القرية القديمة، والمتلهفة على الرحيل حين تقول إنها سوف تبقى مع جدها. ولكنها ملاحظات لا تقلل من أهمية العمل الذي يتعامل مع أزمنة وأمكنة متباينة، وينسج بينهما جميعاً علاقة حميمة، ويصنع عالماً مميزاً تنساب فيه نغمة احتجاج تحتية عذبة.

للمؤلف:

تحت الطبع

مشاهد من قلب الجحيم

(المجلس الأعلى للثقافة)

هذه «كيشّي» الجميلة الهادئة، تطلٍ على النيل من عليائها في شموخ وكبرياء «كيشّي» الأمان والمودة وحسن الجوار بين الكنوز والعرب. الأغاني والأفراح وبناء «الكنوز» بسمارهن وشفاههن الموشومة وأقدامهن المخضبة بالحناء. «كيشي» الماضي والحاضر .. وبلا مستقبل، فبعد شهور أو أعوامٍ ستغمرها مياه السد وتصبح في خبر كان. «كيشي» جدي وأمي وجِدتي «دهبية إسماعيل» و«زينب إدريس». «كيشي» الحكايات والأساطير والعائلات العريقة؛ «آل عوض موسىٍ»، و«آل إسماعيل» و«آل كرار» وآل .. آل. «كيشي» يا حبيبتي رغم شهرتك كقرية آمنة، ستكونين مقبرة لهذا الغريب. أبدًا لن يفلت أبدًا .. أبدًا. نزلت وهو خلفي وجدي عند الشاطئ بحماره الشهير وكلبي يتقافز حرفًا .. يكاد يطير .. فهذا شأنه كلمّا سافرت وعدت، جدي يحتضنني. يرفعني محتضنًا وكلبي يحاول الفصل بيننا، يزوم غاضبًا فهو أحق الكائنات للاحتفاء بي.

الشركة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع



إدريس على

ومنذ اليوم الأول لوصولنا ، وضعنا صورة
جمال عبد الناصر عل أبواب البيوت.
وكلما مات طفل من لدغ العقارب نزع أهله
صورة الرئيس ، حتى اختفت معظم الصور
بعدد الأطفال الذين ماتوا....



